من روائع الأدب العالمي

المدينة الفاضلة

وروائع أخرى

عرض وتبسيط

محمد رجب

الحائز على جائزة الدولة التشجيعية

سفير الدولية للنشر

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م

حقوق الطبع محفوظة

رقم الإيداع : ١٤٨٧٦ / ٢٠٠٧

الترقيم الدولي : 977-361-526- X

سفير الدولية للنشر

١٦ ش محمد عز العرب من ش القصر العيني - ص.ب : ٤٢٥ الدقي - القاهرة

ت : ٢٥٣٢٩٩٠٢ - ٠٠٢ - فاكس : ٢٥٣٢٩٥٠٥ - ٠٠٢

E-Mail: info@Safeer.com _Web Site: www.safeer.com.eg

المعرض الدائم

٤٨ ش أحمد عرابي المهندسين

تليفون : ٣٣٠٤٩٤٠٣ / ٠٠٢

اليـــوتوبيـــا أو المدينة الفاضلة

توماس مور

اليوتوبيا أو المدينة الفاضلة

توماس مور

ولد توماس مور بمدينة لندن عام ١٤٧٨م، وتولى الوزارة في عهد الملك هنري الثامن . . .

يحلم توماس مور بمدينة يسودها السلام والعدالة والاستقرار ، مدينة ليس فيها ظلم أو حرب أو قلاقل . .

خبر مور السياسة، وعانى كثيراً من طغيان هنري الثامن ، ذلك الرجل الذي تعددت زيجاته ، وكلما تزوج سارع إلى قتل زوجته والزواج من أخرى مثل شهريار . .

وقد سجنه الملك في برج لندن، وسرعان ما لقي حتفه بالمقصلة عام ١٥٣٥م وهو في السابعة والخمسين من عمره . .

* * *

يطل الحلم رجل برتغالي يدعى هيتلو داي كان يعرف الإغريقية، وقد اعتاد المجازفات الفكرية من فلاسفة هذه اللغة . ولكنه لم يكن رجل كتب فقط، فقد عرف رجلاً يدعى فسبوتيوس زار معه أميركا الشمالية والجنوبية، وجزائر الهند الشرقية ، وهناك رأى بلاداً تخالف ما ألفه في بلاده، من حيث المؤسسات والنظم، وتركيب الهيئة الاجتماعية ، لذلك يروي ما رآه في هذه

البلاد التي زارها . .

يقول هيثلو داى إنه زار جزيرة ، قد خُطَّت في وسط المحيط على صورة هلال ينقوس حول خليج كبير، بحيث يسهل الدفاع عنها من غارة أى عدو . وبالجزيرة ٥٤ مدينة تبعد كل منها عن الأخرى بمقدار ٢٤ ميلاً، وعلى مسيرة يوم منها، وعاصمة الجزيرة بلدة اسمها أموروت، ولكل بلدة اختصاص قضائى على ما حولها من الأرض.

مهن أهل جزيرة آموروت ..

الزراعة هي أساس المعيشة في هذه الدولة، فليس فيها من يجهل هذه المهنة، فهناك فلاحون يقضون كل حياتهم في الحقول، ولهم مستعمرات في الريف ، ولكن عند الحصاد يرسل عمال من المدن لمساعدة الفلاحين . وكل مستعمرة تحتوي على أربعين رجلاً وأربعين امرأة، وفي كل عام يعود عشرون من هذا العدد إلى المدينة، ويستبدل بهم عشرون آخرون، يرسلون من المدينة إلى هناك ليتعلموا الزراعة، وهي متقدمة من حيث الاقتصاد والإنتاج .

ومع أن جميع سكان الجزيرة يعرفون الزراعة ومارسوها بعض عمرهم فإنهم كذلك يعرفون صناعات أخرى يزاولونها كالبناء والنجارة والحدادة والحياكة، وجميع الصناعات متساوية القيمة فلا تفضل واحدة أخرى . والناس يرثون آباءهم في الصناعات . الصناعة تمارسها العائلات لا الأفراد، وإذا مال أحدهم إلى صناعة تخالف ما يزاوله أبوه ذهب إلى عائلة أخرى لتتبناه هذه العائلة، ويأخذ في تعلم صناعتها . ويمكنه أن يتعلم صناعة أخرى باتباع هذه الطريقة نفسها، ثم له أن يختار ما شاء منهما ..

وليس معنى هذا أن أهل الجزيرة يجهدون أنفسهم ليل نهار ، فإن لهم موعداً للعمل والراحة، ينامون ثماني ساعات، ويشتغلون ستاً، وينصرفون في سائر اليوم كما يشاءون ، وهم يشتغلون هذا

العدد القليل من الساعات؛ لأن كل انسان مجبر على العمل ، فليس بينهم أشراف أو أمراء أو شحاذون يعيشون عالة على غيرهم . ولايعفى من هذا الإجبار سوى الطالب في المدرسة أو القاضي في المحكمة ..

وبين المدينة ومستعمرات القرى تبادل يحدث باحتفال يتم كل شهر، فيأخذ الفلاحون مايحتاجون إليه من صناعة أهل المدن ، ويأخذ أهل المدن ما يحتاجون إليه من غلات الريف. ولابد أن لهذا التبادل نظامًا، ولكننا لانعرفه لان هيتلوداى لم يذكره ..

المدينة مؤلفة من عائلات ، والصناعة تمارسها العائلة لا الفرد يقول هيتلوداى: " كل مدينة مقسمة إلى أربعة أقسام ، وفي وسط كل قسم سوق، فما تحضره العائلات من مصنوعاتها يؤخذ ويصنف كل إلى نوعه في أمكنة خاصة ، ثم يذهب الآباء ويأخذون حاجاتهم من هذه الأشياء دون أن يدفعوا ثمنها، أو يضعوا شيئًا بدلاً منه على سبيل التبادل ..

ليس هناك ما يدعو إلى أن يتكثر على أحد السلعة وذلك لوفرة ما هو معروض من هذه الأشياء، ولأنه لاخوف من أن أحدًا قد يأخذ أكثر من حاجته ، إذ ليس هناك ما يغريه بذلك؛ لأنه يعرف وجود هذه الأشياء على الدوام " .

لماذا يخاف سكان آموروت ..؟

يقول : " إن خوف الحاجة هو الذى يوجد النهم والطمع فى نفوس الحيوان ، ولكن إلى جانب الخوف نجد عند الإنسان خصلة أخرى هى الكبرياء، حيث يتوهم الإنسان أن تفوقه على غيره فى الابهة يزيد مجده وعظمته . ولكن لايوجد من يفعل ذلك فى الجزيرة " .

توماس مور لايحلم بشيوعية النساء كما حلم أفلاطون . ولكنه يحلم بشيوعية الأملاك، وهو لكى يحقق هذه الشيوعية يلغى النقود . فالناس يأخذون حاجاتهم دون ثمن ..

وفى كل عام يجتمع القضاة (وهم الحكام أيضاً) فى العاصمة "آموروت " فينظرون فى غلات كل منطقة ، ويرسلون إلى المناطق المحتاجة ما تحتاج إليه من فائض المناطق الأخرى ..

ليس للذهب أو الفضة أو الجواهر قيمة عند أهل الجزيرة، غريب أن يدعو رجل الدنيا إلى ملكوت خالٍ من الزينة والجواهر فى حين يدعو إليها رجل الدين فى ملكوت السماوات ..

كيف يحيا سكان الجزيرة؟

تقع آموروت عاصمة الجزيرة على تل، وحولها سور، والمنازل مشيدة على نسق واحد، حتى كان الشارع بناء واحد، وسعة الشارع عشرون قدمًا، ووراء المنزل حديقة يعنى السكان بها ويتعهدونها حتى تبقى في نضارة دائمة . وفي كل شارع قاعات خاصة مبنية على مسافات متساوية يقيم فيها القضاة (الحكام) وكل منهم ينظر في شئون ثلاثين عائلة نصفها في جانب من الشارع والنصف الآخر في الجانب الآخر . .

في هذه القاعات يتناول جميع السكان غذاءهم . وتقوم النساء بطهي الطعام بالتناوب، و إلى جانب هذه القاعة معبد ومكان آخر للعب الأطفال الذين تأتي أمهاتهم في نوبتهن .

العائلة هي أساس الهيئة الاجتماعية، وكل ٣٠ عائلة تختار كل عام قاضيًا، ولكل عشرة قضاة رئيس . جميع قضاة الجزيرة الذين يبلغون ٢٠٠ يختارون أميرًا، وتكون إمارته مدى حياته ما لم يتهم بمحاولة استعباد الأهالي . . ولكي يمنع الأمير أو غيره من محاولة قلب نظام الحكومة يعرض كل مشروع على السكان يعرضه القاضي على العائلات الثلاثين الداخلين في اختصاصه ، ثم يتناقشون فيه ويرفع هو قرارهم إلى مجلس الشيوخ .

* * *

ملاحظات على مور

في هذا الحلم أشياء جديرة بالانتقاد لم يستطع توماس مور أن يخرج فيها عن حكم بيئته . لم يدرك مثلاً أن تكاثر السكان مع العناية بصحة الأهالي وتوافر الغذاء لهم سيؤدي حتماً إلى زيادة السكان على طعامهم وإلى إيجاد مجاعة بين السكان، لكن لتوماس مور عذره؛ فالوفيات في عهده كانت كثيرة، تكاد تعدل المواليد، ولم يخطر ببال أحد أن يتخيل مثلاً أعلى للهيئة الاجتماعية يحدد فيه عدد السكان . وإن كان ذكاء أفلاطون قد جعله يحسب لهذا الاحتمال حسابه ويوصي بقتل الفائضين من الأولاد . .

ويظهر من مسائل أخرى عالجها توماس مور أن مستوى المثل الأعلى عنده لم يكن عاليًا إلى الدرجة التي يمكننا أن نتخيلها، يظهر هذا في معالجة مسألة انتقال الأهالي من مكان إلى آخر ومسألة الحرب . . ففي مسألة الانتقال يحتم على كل فرد أن يحصل على جواز من أمير الجزيرة . فإذا غاب أكثر من يوم يجب عليه أن يمارس حرفته في المكان الذي انتقل إليه . إذا وجد إنسان يجول في مكان وليس معه جواز فإنه يعاقب ، فإن عاود هذا الفعل عومل معاملة العبيد . ويبدو من معالجة توماس مور لهذه المسألة أنه لم يعن أقل عناية بالتفكير الجدي فيها، أو أنه أراد أن يحصل على عبيد لجزيرته، فإنه وجد أن بين أعمال الناس التي يحتاجون إليها ما

هو قذر في طبيعته لايرضى بمزاولته أحد باختياره مثل ذبح البهائم وتنظيف الطرق، وما إليها، فخصّ العبيد بالقيام بهذه الأعمال ، وأوجد الرق بأوهى الأسباب في نظام الهيئة الاجتماعية حتى يعيش أفرادها منزهين عن كل ما في مزاولته قذارة . ولكنه نسي شيئًا آخر وهو أن معاشرة العبيد تؤثر في الاسياد . وإذا ألف الاستبداد من السيد للعبد صار أيضًا مألوفًا من الامير للسيد .

* * *

هل الحرب ضرورية ؟

يجيز مور الحرب بشروط، منها الدفاع عن الأرض، واضطهاد التجار الأجانب ومنع الأمم من الهجرة إلى بلاد يمكن زراعة أرضها، وليس هناك من يزرعها من أهلها.

ومن هذه الشروط نرى أن توماس مور كان يكتب مستضيئاً بالحوادث التي جرت في عصره؛ فقد كانت أميركا حديثة العهد بالاكتشاف، والهجرة إليها متصلة، وكانت سفن التجارة يقبض عليها في الموانئ ويسلب ما فيها من السلع . ولكنه يؤلف الجيش بطريقة عشوائية ويصطفي أسوأ الرجال ليجندهم في الحرب، حتى إذا قتلوا استفادت الأمة بفقدهم على نحو ما ينزع الزارع الأعشاب الضارة من حقله..

ما هي الآن شروط الزواج والدين ؟.. يسمح أهل الجزيرة للعروسين بأن يرى كل منهما الآخر قبل الزواج. وللطلاق علتان؛ الأولى: الزنى. والثانية التواء أحد الزوجين على الآخر بحيث لا يمكن تقويمه. ومن زنى يحكم عليه بالرق، ولايمكن أن يتزوج رجلاً كان أم امرأة.

هذا هو حلم توماس وهو يركز فيه على فكرة واحدة ، هي أن يسيطر الإنسان على الممتلكات ، ويتمتع بها لا أن يكون هو نفسه

عبداً لها يقضي حياته في جمعها واختزانها، ويجهد نفسه في المحافظة عليها وحراستها ورعايتها ، يظن بذلك أنه مالكها والحقيقة انها تملكه وتسترقه.

وهو لذلك يلغي النقود لأنها وسيلة ادخار المستلكات . ويحتم على الجميع أن يشتغلوا في الزراعة ولو بعض وقتهم، حتى يشعر كل إنسان أنه منتج . ثم يحتم على كل إنسان أن يصنع شيئًا إن لم يزرع . ثم يعرض جميع السلع على الناس يأخذون منها ما يشاءون في أمان وسلام. يرى مور أن أوقات الفراغ وهي كثيرة تقضي في طلب العلوم والآداب، ويحاول كل إنسان أن يرقي بذهنه بما يقرؤه أو بما يناقش فيه إخوانه . .

* * *

الفـــــردوس المفـــقـــود

جون ميلتون

الفردوس المفقود

جون ميلتون

أولاً : حياة ميلتون :

كانت حياة ميلتون صاخبة؛ فقد فضل أن يكون جمهوريًا إلى النهاية فى دولة بريطانيا الملكية . . .

ولد عام ١٦٠٨ فى مدينة لندن، وكان أبوه ممن آثر التضحية بميراثه العائلى ليعمل كاتبًا عموميًا فى لندن ثم احترف الموسيقى وتاليف الاغانى .

وقد لاقت هذه الاغانى نجاحًا جماهيريًا لا باس به . ولا شك أن الآلات الموسيقية (وأهمها الأرغن) التى كانت فى داره قد هيأت مناخًا فنيًا مواتيًا لتفتيح مواهب جون الصغير فاولع بالموسيقى من صغره، وانكب على الدرس والاطلاع منذ نعومة أظفاره وهو يقول عن تلك الفترة :

« نذرنى والدى للادب منذ طفولتى، وقد كانت لدىّ شهية بالغة للمعرفة حتى إننى منذ الثانية عشر لم أكن اترك القراءة أو أنام قبل منتصف الليل . وكان هذا هو السبب فى فقدانى نعمة البصر . فلقد كنت أعانى دائمًا من ضعف البصر، وكان الصداع يؤرقنى دائمًا دون أن يؤثر على حماسى للاطلاع والعلم أو يقعد بى عن

مواصلة الدرس».

أتقن اليونانية واللاتينية أولاً ثم الإيطالية والفرنسية وقليلاً من العبرية، ولكن الإيطالية كانت أهم لغة لديه، بل أهم لغة لدارسي الأدب؛ لأنها لغة عصر النهضة، وعند تخرجه من الجامعة في عام ١٦٢٨ – ١٦٢٩ كتب أولى قصائده الشهيرة، وهي الاحتفال بصبيحة عيد الميلاد وهو لم يتجاوز الحادية والعشرين، ثم حصل على درجة الماجستير عام ١٦٣٢ .

ومنذ هذه اللحظة بدأت مرحلة الإعداد لكتابة الشعر.

في عام ١٦٣٨ بدأ ميلتون رحلته إلى إيطاليا، فحط الرحال أول الأمر في باريس حتى يستطيع أن يلتقي بأحد كبار رجال القانون وهو (هوجو جروتيوس)، واستطاع أن يتناقش معه في أصول تطوير القانون الدولي، ولكن الجو العام في فرنسا كان يبعث على الانقباض؛ إذ كان (ريشيليو) في ذروة سلطانه، فترك باريس واتجه إلى إيطاليا، فزار أهم مدن عصر النهضة وخاصة فلورنسا حيث قابل (جاليليو)، ثم زار البندقية وفيرونا وميلانو، وهناك سمع بنشوب الحرب بين إنجلترا وأسكتلندة؛ لأن الملك شارل الأول حاول أن يفرض النظام الأسقفي الانجليكاني على كنيسة أسكتلندة التي كانت تتبع المذهب المشيخي، ولهذا قرر العودة فوراً ليكون قريباً من تلك الأحداث الجسام.

عندما عاد ميلتون إلى لندن استأجر مسكنًا مستقلاً، وعمل بالتدريس. كان يريد أن يكون قريبًا من البرلمان، وهو البرلمان الذى استدعاه شارل الأول ليوافق على تمويل الحرب ضد أسكتلندة، بعد أن ظل يحكم البلاد أحد عشر عامًا دون برلمان، ولكن هذا البرلمان - كما اتضح منذ اللحظة الأولى - لم يكن ليرضى بتمويل حرب الأساقفة دون إجراء إصلاحات واسعة النطاق فى مملكة إنجلترا أولاً، وكانت تدر صراع جديد بين الملك والبرلمان تلوح فى الأفق، مما اضطر الملك إلى حل البرلمان بعد أسبوعين فقط من الاجتماعات، ومحاولة فرض نظام الأساقفة بالقوة على أسكتلندة، ولكن هذه المحاولات باءت بالفشل الذريع، مما جعل الملك فى موقف لايحسد عليه، ولم يكن أمامه إلا أن يستدعى برلمانا آخر فى نوفمبر عام ١٦٤٠، وكان هذا هو « البرلمان الطويل » الذى شهد الحرب الأهلية.

فى لندن أعلن زواجه من فتاة تدعى (ماري باول)، والظاهر - كما يقول المؤرخون أنه كان قد قضى شهرا لدى أسرتها إما ليسترد النقود التى كان قد أقرضها لوالد (ماري)، أو ليتم مراسم القران وذلك فى مقاطعة (أكسفوردشير).

وكان ذلك زواجًا غريبًا؛ إذ إن أسرة (ماري) كانت تناصر الملكية ولم يكن ثم وفاق بين ميلتون وزوجته.

تولى ميلتون منصب أمين مجلس الدولة للُّغات، ومن مهامه كتابة الرسائل الموجهة للدول الأوربية، وترجمة النصوص الإنجليزية

الرسمية إلى اللاتينية...

في عام ١٦٥١ فقد ميلتون بصره تمامًا، ومع ذلك فقد كان مستمرًا في كتابة النشرات والكتيبات دفاعًا عن النظام الجمهوري، ودحضًا لحجج أنصار الملكية، وهي الحجج التي كانت تتناقلها أوربا بإيعاز من شارل الثاني، الذي كان يعيش لاجئًا طول هذه الفترة في فرنسا. بعد ذلك بعام توفيت زوجته ماري تاركة له ثلاث بنات، وقد أثر عليه فقد البصر ورحيل زوجته، فقل نشاطه السياسي خاصة أنه قد أحس أنه قد أتم دفاعه عن الجمهورية، وأنه قد أدى واجبه وقام به خير قيام، ويمكننا أن نقول بصفة عامة إنه قد توقف عن كتابة النشرات العنيفة بعد عام ١٦٥٥ . وفي عام ١٦٥٦ – بعد أربع سنوات من وفاة زوجته– تزوج للمرة الثانية، وكانت خير القرين لهذا الرجل الحاد الطبع الذي يعاني الأمرّين من فقدان البصر، ومن تبعات منصب لم يعد قادرًا على النهوض به. ولكن الهناء لم يدم طويلا إذ توفيت في عام ١٩٥٨ أثناء الولادة (وتوفي المولود أيضًا)، ولا يستطيع قلم تصوير مدى معاناة هذا الشاعر الكفيف ذلك العام، وعشية عودة الملكية في عام ١٦٦٠ أصدر ميلتون كتيبًا عنوانه «الطريق الممهد السهل لإنشاء جمهورية حرة».

وبعودة الملكية انطوت صفحة تاريخية نادرة من التاريخ الإنجليزي، وأحس ميلتون بالمرارة «ولكنه لم يستسلم أو يسلّم

بالهزيمة. بل إنه أصدر طبعة ثانية من كتابه "الطريق الممهد السهل لإنشاء جمهورية حرة". يحذّر فيها البرلمان من أن الملك لن يفي بالوعود التي يقطعها على نفسه، ويقول إنه وإن كان الشعب يريد للملك أن يعود فليس من حق الأغلبية أن تفرض على الأقلية المتنوّرة آراءها المضللة، وقد استند في هذا أيضاً إلى فكرة الحرية؛ لأنه لا يمكن التضحية بحرية الأقلية إرضاء لرغبة الأكثرية. وقد كانت هذه الطبعة سبباً في إثارة أنصار الملكية العائدة عليه؛ فأودع السجن، وظل به ثلاثة أشهر حتى توسل بعض الوسطاء إلى البرلمان أن يرحم شيخوخته، وفقدانه البصر، ويخرجه من السجن ،وفعلاً خرج ميلتون من السجن في آخر عام ١٦٦٠ (١٥ ديسمبر)، وكأنما كان القدر يهيئ له هذه الفرصة حتى ينصرف إلى كتابة العمل العظيم الذي كان قد نذر حياته له فانقطع للكتابة. وبعد عامين تزوج من إليزابيث منشل (١٦٦٣)، وكانت بارعة في إدارة منزله، وكانت بصفة عامة خيراً وبركة عليه؛ إذ تحملت كل شيء حتى ترضيه، كما تحملت بناته الثلاث طباعه الحادة وطالما اشتكين من قسوته وغلظته في تلك الأيام، ويكفي أن نذكر أنه كان يجبرهن على القراءة له بلغات لا يجدنها.

وفي عام الطاعون (١٦٦٥) انتقل ميلتون إلى بيت أحد أصدقائه من الكويكوز، وهو منزل صغير في الريف الإنجليزي، حيث عكف على ملحمته فأكملها ونشرت في عام ١٦٦٧ . ومع

بلوغه سن الستين ازداد نشاطه الأدبي، فكتب عودة الفردوس، وشمشون الجبار ونشرهما في عام ١٦٧٠ . ولم يعمر بعد ذلك طويلاً إذ وافته المنية في نوفمبر ١٦٧٤ . .

ثانيًا : الفردوس المفقود :

أجمع النقاد على أن « ميلتون » أحد ثلاثة هم أعظم الشعراء قاطبة في الأدب الإنجليزي، ولسنا نعني بهذا أننا لا نجد بين أدباء الإنجليز عددًا من الشعراء قد يبلغ العشرين، ممن يرتفعون في بعض أدبهم إلى الأوج الذي ارتفع إليه ميلتون، وإنما نعني أن ما أداه هذا الشاعر العظيم من تجسيد روح عصره في شعره، ومن الصعود بشعره إلى أوج لم يهبط منه، لم يتوفر في تاريخ الأدب الإنجليزي كله إلا في ثلاثة : « شكسبير » و« ميلتون » و« ورذزورث ».

كان « ميلتون » أصدق لسان يعبر عن خواطر عصره كله؛ فكانت له غاية واحدة رئيسة ينشدها في كل ما أنشد من شعر، وما تلك الغاية المنشودة إلا بغية عصره، وأعني بها أن يقيم الناس برهانًا على عدل الله سبحانه وتعالى.

تقع « الفردوس » في اثني عشر جزءًا، يمكن تقسيمها إلى ثلاث مجموعات، فثورة الملائكة وكفاحهم يشغل الأجزاء : الأول والثاني والثالث، كما يشغل الشطر الأعظم من الجزأين الخامس والسادس، وخلق الإنسان وشقاعة المسيح له يرد ذكرهما في الجزء

الأول والرابع ثم يشغل جانبًا من الخامس والسابع والثامن إيقاع الشيطان بالإنسان، ثم عصيان آدم وحواء وطردهما من الجنة، هو موضوع الأجزاء الباقية من التاسع إلى الثاني عشر. وها هي خلاصة لهذه الملحمة العظيمة.

يستهل الشاعر قصيدته بدعاء يوجهه إلى ربة الشعر يستلهمها الوحي:

يا ربة الشعر أنشدينا :

كيف كان من الإنسان أول العصيان؟

ما تلكم الشجرة الحرام وما جناها؟

فإياك أستعين على نشيدي العصيب

الذي أعزم ألا يلوى في تحوامه

حتى يحلّق صاعداً فوق سامق « أونيا »

ينشد غاية لم يحاولها قبل نثر ولا قصيد .!

ثم يتجه الشاعر إلى المسيح :

وأنت يا ذا الروح إليك أنحو

يا من يؤثر على جلاميد المعابد طهر القلب والتقوى

فائتني العلم إنك أنت العليم

قد شهدت الوجود منذ فاتحة الوجود.

* * *

ميلتون يبدأ قصته في منتصف الأحداث؛ فنحن نرى الملائكة الفسقة بعد أن تمردوا على البارئ وبعد أن تمت هزيمته، وبعد أن خلق الله الجحيم والكون، وهنا يفيق إبليس من إغمائه، ويرفع رأسه من البحيرة الملتهبة حيث يرقد عاجزًا لا حول له ولا طول، وبعد أن يفيق ويقوم بإفاقة أقرانه ويبث فيهم روح شجاعة جديدة، نرى أن الأحداث التالية سوف تتوقف على الشائعة التي كانت تتردد في الجنة قبل سقوط الملائكة، ومؤداها أن الله يوشك أن يخلق نوعًا جديدًا من الكائنات، ويقرر الشياطين أن أفضل سبيل لمواصلة الحرب ضد العلي القدير هي محاولة إفساد هذا الكائن الجديد. ويعهد إلى إبليس بهذه المهمة، ومن ثم يلتقي مع ابنائه (الخطيئة والموت) عند بوابة الجحيم، وبعدها يرحل إبليس عبر العماء إلى مشارف النور، ويرى أبراج السماء ويرى الكون معلقًا منها بسلسلة، وهذه نهاية الكتاب الثاني، ويقول أحد النقاد إن هذين الكتابين يمثلان «حركة» من حركات السيمفونية الكبيرة – وهي حركة تتكون ألحانها من مجموعة قوى الشر التي تتربص بالإنسان وتريد القضاء عليه– ممثلاً في آدم وحواء.

ويبدأ الكتاب الثالث باستلهام النور – رمز الألوهية والخير– وهذا هو اللحن الثاني أي لحن الجنة، ويصف ميلتون هناء الجنة

بصورة تجعله ممائلاً لشقاء الجحيم، ومثلما عرض إبليس أن يقوم بالرحلة وحده إلى الدنيا لإفساد البشرية، يعرض المسيح أن يقوم بالرحلة وحده هو الآخر لإنقاذها. وبعد أن يصف ميلتون الجنة يتابع رحلة إبليس حتى يخترق قبة الكون الذى يشتمل على النجوم والكواكب والأرض فى المركز ثم يحط على الأرض فى النهاية.

* * *

يصف ميلتون فى الكتاب الرابع الفردوس وساكنيه من البشر والحيوان، ومحاولة إبليس إغواء آدم وحواء ليأكلا من الشجرة المحرمة.

ويصف الكتابان الخامس والسادس قصة الملائكة وسقوطهم، لكن أروع الكتب جميعًا هما الكتابان التاسع والعاشر...

يستأنف الحدث الرئيسى فى الكتاب التاسع، ويبلغ ذروته (أى الأزمة) فى هذا الكتاب وفى الكتاب العاشر، ومع الأزمة تتغير «الحان» الملحمة- كما يشير ميلتون إلى ذلك فى مقدمته لهذا الكتاب- فهو يقول إنه يغير من أسلوبه السابق إلى أسلوب المأساة. نحس بالفعل منذ هذه اللحظة أنه فى لجة تجربة بشرية حقيقية.

ويتخفى إبليس ثانيًا، فى صورة ثعبان هذه المرة، ثم يعاود

الهجوم ويسعده الحظ بأن يجد حواء وحدها، ويتوسل بالأكاذيب والإطراء حتى يقنعها بأن تذوق الثمرة المحرمة. وعندما يأتي آدم يشاركها الطعام فيسقطان معًا في وحدة الذنب.

أما الثمرة فإن مذاقها يسكر أول الأمر، ثم يجعل الإنسان يصحو نادمًا يتجاذبه الشقاء والألم، وينتهي الكتاب التاسع بالتشاجر وتبادل التهم، ويبدو في الظاهر أن إبليس قد انتصر، ولكن الحدث لم يكتمل بعد، وأن المسيح يذهب إلى الفردوس ليصدر الحكم على خطيئة آدم وحواء وهو يحكم عليهما بتكبد المشاق التي تنتهي بالموت على الأرض. ولكنه أيضًا يشفق عليهما، ويجعلهما يخصفان عليهما من ورق الجنة.

يجيد ميلتون وصف الحب بين آدم وحواء.. إنهما حبيبان رائعان في الفردوس..

يقول ميلتون عنهما صبيحة عصيانهما أمر الله وأكلهما من الشجرة:

«وأقبل الصباح وهمّ آدم وحواء أن يعملا، فاقترحت حواء أن يبعد كل منهما عن الآخر أثناء قيامهما بالعمل؛ لأنهما إذ يقتربان يتبادلان النظرات والبسمات والأحاديث، فيدافع آدم عن وجوب هذا اللقاء الحلو بين النظرات والبسمات؛ لأنهما ما خلقا للعمل المضني إنما أريد لهما أن يعملا عملاً هيّنًا لذيذًا.

لكن حواء طمأنته بأنها لن تقع فريسة لخداع العدو المتربص إن كان ثمة عدو متربص، وأجابها آدم بأنه يخشى عليهما الإغراء وأنهما لو سارا معًا كانا أكثر حذرًا وحيطة، فأبت حواء أن تذعن ومضت وحدها، وما هي إلا أن صادفها الشيطان وحيدة فوقف أمامها، وقد تقمّص الحية، وأبدى لها من الإعجاب ما يبديه العابد نحو معبوده، وأخذ يخاطبها بلسان الشر: «يا أميرة هذا العالم الجميل، أي حواء الباهرة» فسألت حواء: كيف أمكن للوحش أن ينطق بلسان الإنسان؟ فأجاب بأنها قدرة استمدها حين أكل ثمرة شجرة معينة؛ فقد بثت فيه تلك الثمرة عقلاً مفكرًا وحملته على عبادة هواء؛ لأنها «مليكة على الخلق» فطلبت إليه حواء أن يدلها على مكان تلك الشجرة ذات الثمر العجيب، فأسرع بها إلى «الشجرة المحرمة» ولما ساورتها الوساوس والمخاوف قال:

يا مليكة هذا الكون لا تلقي بالاً

إلى ذاك الوعيد بالموت لن تموتي

بعد أن أكلت حواء ثمار الشجرة المحرمة ناجت نفسها:

ولكن أية صورة أبدو لآدم؟

أأنبئه بما اعتراني من تغير؟

ماذا لو كان الله قد رآني

فجاءنى الموت تباعاً؟ إذن فمصيرى إلى فناء

ويزوج آدم من حواء غيرى

ويحيا معها فى نعيم أنا أموت..!

ويحى! لقد حزمت أمرى.. إذن لقد اعتزمت.

أن يقاسمنى نعيمى وشقوتى

إنى أحبه حبًا يجعلنى أحتمل الموت فى صحبته.

وبغيره لا أطيق الحياة!

..... وآدم عندئذٍ

ينتظر عودتها فى شوق وضفّر لها

إكليلاً من أحسن الزهر ليزيّن جدائلها..

* * *

جاءت حواء وعلم منها عصيانها، فوقف واجمًا وسقط من يده الإكليل الذى ضفّره لحواء، ثم التفت إلى حواء وأخذ يسرى عنها:

قد لا تموتين...

فما أحسب أن الله وهو الخالق الكريم

– رغم وعيده – سيعمل جاداً على فنائنا ونحن زهرة خلقه..

وعلى أية حال فقد وصلت مصيرك بمصيرى

واعتزمت أن أقاسى ما تقاسين من قضاء

فلو دهمك الموت كان الموت لى كالحياة!

* * *

ناولته حواء الفاكهة المغرية الجميلة فلم يحجم عن أكلها، مع أنه يعلم وخيم العواقب، ولم يكن مخدوعًا كما كانت حواء، لكن كيف له أن يقاوم سحر المرأة؟ وسرعان ما أحس كلاهما الندم على فعلته، واختفيا فى الغابة، وتدثرا بأوراق الشجر، وأخذا يبكيان، ويوجه أحدهما اللوم للآخر فصاح آدم:

هلا أصغيت لكلماتى ولبثت

معى – كما رجوتك – حين تمكنت منك تلك الرغبة العجيبة فى التجوال هذا الصباح المتكود؟ فقالت حواء:

ولو بقيت أنت على رأيك ثابتًا

لما زللت ولا زللت معى

وينتهى الكتاب العاشر بان يطلبا العفو من الله:

بعبرات تروض الأرض، وآهات تغشى الهواء،

صادرة من قلوب التائبين، آيات صادقة على الأسى والخشوع.

بمجرد أن يبدى آدم وحواء ندمهما يتحدد مسار الأحداث التالية، ولذلك يخصّص ميلتون الكتابين الأخيرين لمستقبل البشرية؛ فالله سبحانه وتعالى يقبل توبة آدم وحواء ويرسل إليهما ميكائيل- ذلك الملاك الأكبر - ليقدم إليهما رؤياه عن مسار تاريخ العالم، فيشاهدان عدة لوحات تصوّر الأحداث الرئيسية المذكورة في سفر التكوين حتى عهد الطوفان. وهنا ينتهي الكتاب الحادي عشر. أما الكتاب الثاني عشر (والأخير) فإن ميكائيل يلخص فيه تاريخ البشرية بلغته الخاصة ابتداء من الطوفان وحتى يوم القيامة (بما في ذلك الأحداث المذكورة في العهد الجديد)، ويدرك آدم طبيعة الأمور ويتقبلها، فهو قد تعلّم طاعة الله، وأصبح يدرك أن التواضع والخشوع أقوى في نهاية المطاف من كبرياء إبليس، ويتسلح آدم وحواء بهذا الإدراك، ويستعدان للحياة به على ظهر الأرض، عندما تأتي الملائكة في نهاية الملحمة لطردهما من الفردوس.

* * *

هذه هي ملحمة الفردوس المفقودة للشاعر الإنجليزي جون ميلتون...

لكن ما هي الملحمة ؟

ما هي خواصها الفنية التي تميّزها عن سواها ؟

إن كلمة ملحمة تعنى الالتحام، أى تلاقى المقاتلين جسديًا أثناء الاشتباك فى حومة الوغى، ومن ثمّ فهى تعنى الحرب، ولا شك ان الحرب كانت دائمًا موضوعًا مميزًا للملحمة، ولكن معنى الملحمة يتجاوز حدود الحرب- فكثير ما يقصد بها الكتاب، أى عمل تتخطى أبعاده حدود الواقعة فى الحياة أو فى الفن، (فى السينما والرواية مثلاً) وعزرا باوند نفسه (الشاعر والناقد الأشهر) يضع يده على أحد المعالم المهمة للملحمة دون سائر معالمها حين يقول إنها ١٥٨ قصيدة تشتمل على تاريخ، وقد حاول (ميرشانت) فى كتيبه الصغير عن الملحمة أن يرسم لها صفات خارجية تعيننا على إدراكها لأول وهلة حين يقول : إن الملحمة تتميز بثقلها، أى بطولها وضخامة هيكلها وأبعادها الكبيرة. ولا يعنى الطول بالضرورة كثرة الأبيات، ولكن هيكل أحداثها ينبغى أن يكون شاسع الأبعاد إذ إنها لا تختص بلحظة واحدة، أو لمحة من حياة إنسان، بل ولا تركز على إنسان فرد مهما كانت أبعاد حياته هو نفسه، ولا تتخذ من المشاعر العابرة موضوعها الأساسى أو من « اللقطات » العادية فى الحياة اليومية.

النقاد القدماء يقسّمون الملحمة إلى نوعين: الملحمة البدائية والملحمة المصطنعة. وهو تقسيم لا يصلح؛ إذ إننا لا نستطيع أن نصف بالبدائية حقًا أى شعر قديم وصلنا، كما أن الصنعة لا يخلو منها الشعر أيًا كان، ولهذا فأنا أفضل أن يكون التقسيم هو الملحمة الأولية

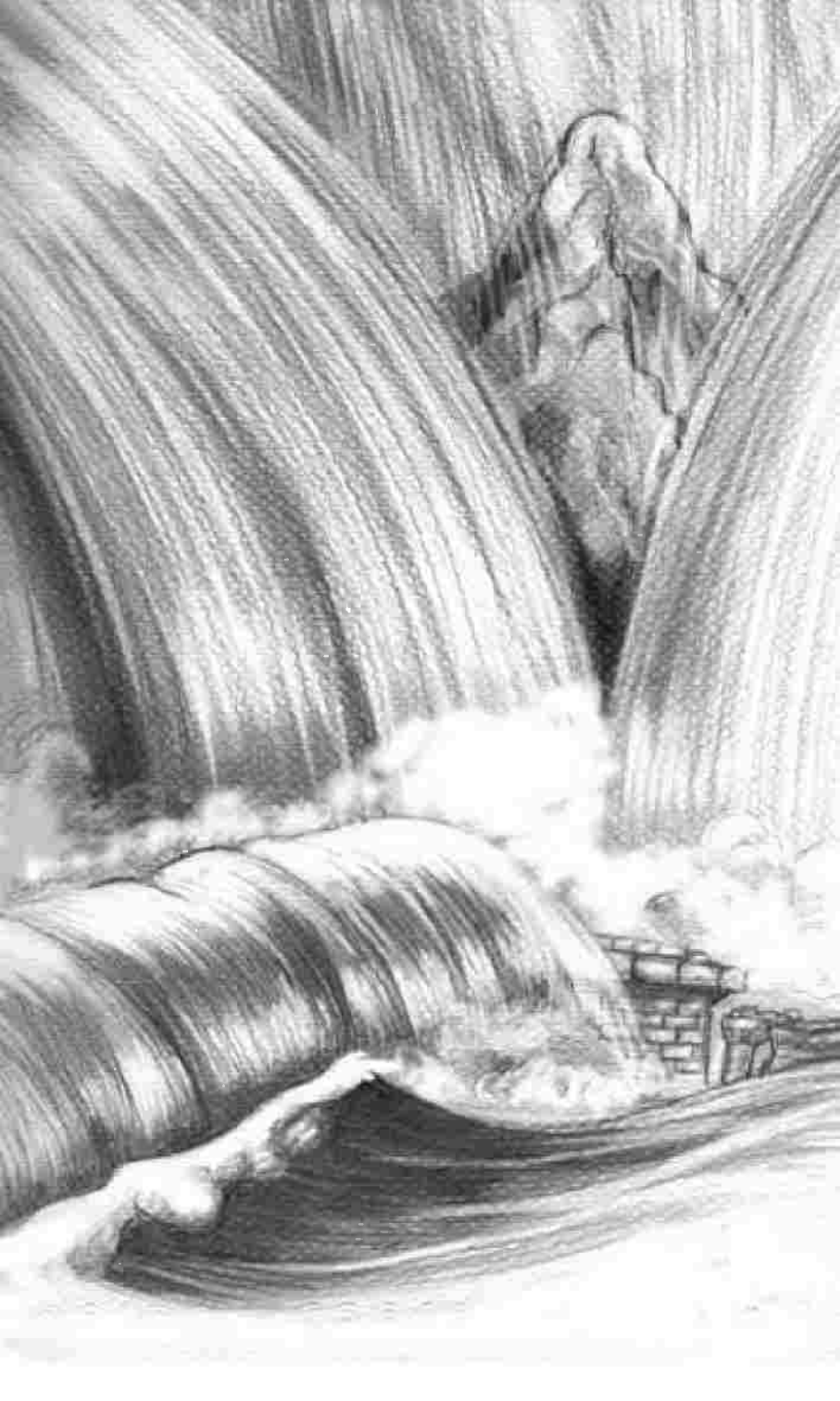

والملحمة الثانوية. وهاتان الصفتان تشيران إلى الزمن فحسب ولا تتضمنان أى حكم على قيمة العمل.

فكلمة « ثانوى » هنا لا تعنى من الدرجة الثانية، ولكن تعنى أنها جاءت بعد الأولى، ونبعت من الملحمة « الأولية »، ويمكننا ان ندرج فى القسم الأول ملحمتى الإلياذة والأوديسا لهوميروس وفى القسم الثانى يمكننا إدراج ملحمة الإنيادة لفيرجيل، والفردوس المفقود لميلتون.

أما الخصائص العامة للملحمة فى الأدب الأوربى فهى أنها قصيدة شعرية طويلة مكتوبة بالبحر سداسى التفعيلة، (أى الذى يشتمل البيت فيه على ست تفعيلات) أو ما يماثله، وهى تدور إما حول بطل مثل إخيل، أو حول حضارة مثل الحضارة الرومانية، أو الحضارة المسيحية. الخصائص الفنية لها هى :

وحدة الحدث، والسرعة، وفن البداية فى منتصف الاحداث، واستخدام الخرافة، والنبوءة، والعالم السفلى، والتشبيه الزخرفى، والصفات المتكررة، ونبرة السمو والصدق التى لا يمكن مجاراتها أو إيجاد مثيل لها إلا فى بعض نماذج الادب الشعبى.

ميزة ميلتون :

ميلتون يختلف عن كل من سبقه فى اختياره موضوعًا دينيًا، بل إن موضوعه هو الدين، ولكنه لم يتوصل إلى هذا الاختيار إلا

بعد تردد طويل؛ فنحن نعلم أنه قد نذر نفسه لكتابة الشعر في سن مبكرة (مثل وردزورث وكيتس) وربما كان ذلك عندما بلغ الحادية والعشرين.

ولا شك أنه كان يطمح منذ البداية في كتابة أعظم الأنواع الشعرية احترامًا وتقديرًا آنذاك وهو الملحمة – وبخاصة الملحمة. جعل ميلتون الإنسان بطلاً لملحمته– آدم وحواء يتنازعهما الشر والخير، ولكن ميلتون جعل هذا التنازع شاملاً لتصوره الخاص عن العقيدة الدينية، وعن تصوره لمجرى تاريخ الإنسانية. أي إنه يجعل موضوعه شاملاً مترامي الأطراف، مثلما فعل دانتي في الكوميديا الإلهية؛ إذ إنه كان عميق الإحساس بما يجري حوله من أحداث، وبأن الأحداث الجارية تمثل حلقة من حلقات التاريخ البشري المتداخلة، والأهم من ذلك أنها تعتبر جزءًا من حركة أزلية لا تتوقف، وهكذا فإن آدم وحواء ليسا مجرد شخصيات ذكرت في الكتب الدينية ونماذج للبشرية بصفة عامة: بل هما نموذجان للبشر الذين يعيشون بين ظهرانينا.

فهل استمتعنا يا أعزائي بهذا اللون البديع ؟

الملحمة الشعرية الرائعة : الفردوس المفقود ؟

* * *

الكوميديا الإلهية

دانتي أليجيري

الكوميديا الإلهية

أولاً : حياة دانتى :

إنه شاعر جبار ، قل أن يجود الزمان بمثله . .

أخرج إلى العالم واحدة من أروع الملاحم، حتى قارنوه فى العظمة بهوميروس صاحب الإلياذة والأوديسة . .

وصفه الكاتب بوكاشيو بأنه: كان ذا وجه طويل وجبهة عريضة، وعينين لامعتين واسعتين ، وذقن مدبب ، أسود الشعر ، أسمر اللون، متوسط القامة . . رجلاً متعدد المواهب، مطربًا ، عازف موسيقى، رسامًا، شاعرًا، سياسيًا، يستمتع بالحياة . .

* * *

كان دانتى صاحب إحساس مرهف ، جعله شديد التأثر قادراً على البكاء حتى يفقد الوعى وكان له غرفة يسميها غرفة الدموع . يبكى دانتى عندما أحب بياتريس . ويبكى عندما فقدها سريعًا . وعندما تقدم فى السن لم ينقطع عن البكاء. يبكى عندما كتب " الكوميديا " . ويبكى عندما شارك المعذبين آلامهم فى " الجحيم " ، ويبكى عندما عانيته بياتريس فى " المطهر " . ويبكى عندما سمع غناء الملائكة فى " الفردوس " . امتاز دانتى بالكبرياء ومدح النفس . كان معتزاً بنفسه إلى حد جعله لايحقد على الآخرين .

تكلم دانتي عن إيطاليا كثيراً . تكلم عن مدنها وقراها وأنهارها وجبالها وكنائسها وأبراجها وأهلها ، وأعطى صورة جغرافية لكثير من مناطقها ، وحدد ارتباط الأشخاص بها . ولم يحب دانتي مكاناً في الأرض كما أحب إيطاليا وفلورنسا بخاصة، فإيطاليا عنده حديقة الإمبراطورية ومركز العالم . وفلورنسا هي الوطن النبيل والمدينة العظيمة على نهر الارنو الجميل، وهي المكان الجميل الذي نام فيه كالحمل لم يتكلم دانتي بعنف وقسوة كما تكلم عن إيطاليا وفلورنسا .

لم يحرص دانتي على جمع المال أبداً ، وربما وصل شعوره بإزائه إلى حد الكرهية في بعض الأحيان . وهو إن لم يكن من أسرة معوزة إلا أنها كانت أسرة محدودة الموارد . وكانت قلة المال من عوامل إخفاقه في الزواج من بياتريس التي انتمت إلى أسرة تتمتع بالثراء . وبذلك ارتبطت قلة المال بحياته العاطفية منذ سن مبكرة . وكان أبوه يشتغل بالربا، ولذلك عيّره بعض الناس أحياناً بأنه كان يعيش على أموال غيره ، فزاد ذلك من عزوفه عن المال . وفي الوظائف والسفارات التي تولاها . و لم يكن يكفي دانتي مال الحكومة الفلورنسية ، فكان ينفق من ماله القليل ، وبلغ به الأمر حد الاستدانة أحياناً لتغطية النفقات الضرورية . وكان اتهاماً عجيباً ذلك الذي وجهه إليه السياسيون من حزب الجلف السود، واعتبارهم إياه مرتشياً مستغلاً وظيفته في ابتزاز الناس، فآل مصيره،

إلى النفى والحكم عليه بالموت .

ما أصعب أن يتهم بالرشوة والسرقة الرجل الأمين الذى يبذل من ماله ويكلف نفسه فوق طاقتها فى سبيل المصلحة العامة . وصحيح أن دانتى أحس بالفاقة والجوع فى بعض الفترات من حياة المنفى التى عاشها، ولكن ذلك لم يجعله يحرص قط على جمع المال، ولم يستذل فى سبيله أبداً . بل كان ينأى عن سبل جمعه، ويكتفى بما يصله منه لقضاء حاجته الضرورية . واعتبر دانتى أن ذهب الدنيا كله منذ أقدم الأزمنة حتى عصره، لايستطيع أن يريح نفساً واحدة أضناها فى سبيله الكد والتعب، وما ارتبط بالمال من جاه وصيت وأبهة لم يساو عنده أكثر من نفثة ريح تغير اسمها إذ تغير مكان هبوبها واتجاهه . وأى مال أو جاه أو صيت كان من شأنه أن يغرى دانتى العظيم ؟

أحس دانتى . . ككثير من العباقرة ، بشعور العزلة والوحدة . ولم يطل عمر والديه حتى يتمتع بحياة الأسرة ، ولم تدرك بياتريس قدره ، ولم يكن له من بين رفقاء الشباب صديق حقيقى ، وكان يقضى الوقت معهم فى حياة اللهو والمرح دون أن يفهمه أحد على حقيقته . ونعرف أن أخاه فرنتشسكو غير الشقيق قد عاونه بعض الوقت ، ولكن لايعلم أحد طبيعة العلاقة بينهما . ولم تطل حياته الزوجية ، التى لم يذكر شيئاً عنها . وقد عاش ولداه بيتر وجاكوبو على مقربة منه فى أواخر حياته ، وقالا بعض الشعر . ولعل دانتى

تألم عندما وجد مستواهما أقل من المتوسط . وفى الحياة السياسية وجد دانتى أن أغلب الناس يعملون لمصالحهم الذاتية ، وتعوزهم حرارة القلب وصفاء النفس والإخلاص للوطن ، فنأى عنهم جميعاً . وعلى الرغم مما لقيه من الصعاب فى حياة المنفى ، فقد أحسن بعض الأمراء استقباله ، وقدره بعض رجال السيف والقلم . وأصبح له فى رافنا أصدقاء ومريدون ، كما رأينا . ولكن لم يوجد بينهم من فهمه حق الفهم . كان أصدقاؤه ومعارفه يجتمعون من حوله هنا وهناك فى شبه حلقة . وكان يدنو منهم وينأى عنهم ، دون أن يمتزج بهم تماماً . حتى لوكان فى محيطهم . وقلائل جداً أولئك الذين أصبحوا له أصدقاء حقيقيين، وربما لم يوجد له أصدقاء فى فلورنسا سوى أصدقاء قليلين حتى كتب دانتى عدداً من المؤلفات الصغرى أولها " الحياة الجديدة " التى كتبها سنة ١٢٩٣، وهى عبارة عن قصة شبابه، لقد تم بعثه من جديد بسبب الحب الذى أحسه نحو بياتريس، وكتب " الوليمة " فى الفترة بين ١٣٠٦ ، ١٣٠٨ والكتاب وليمة علم ومعرفة ، وله طابع دوائر المعارف .

وكتاب " الملكية " الذى كتبه فى الفترة من ١٣٠٩ إلى ١٣١٣ على وجه التقريب، وانتهى من وضعه بعد أن تبدد حلمه السياسى ، الذى كان يأمل فى تحقيقه على يد الإمبراطور هنرى السابع .

يقول دانتى فى الكتاب الأول من " الملكية " : إن الله قد زود

الناس جميعًا بحب الحقيقة ، وإن عليهم أن يعملوا لخير الأجيال القادمة . وأن يؤدوا لها ما أداه لهم أسلافهم . وإنه يقصد بكتابته خير المجتمع الإنساني، ويقول : إن الغرض من الحضارة استكناه العقل الإنساني ، واستنباط الملكات للعمل على أساس من العلم والمعرفة . ويتكلم عن السلطة الزمنية الملكية أو الإمبراطورية العالمية ويسوق الأدلة على ضرورتها لحياة البشر . ويقول : إن الجنس البشرى يصبح أقرب إلى الله إذا زاد اتحاده وترابطه .

* * *

ثانيًا : الكوميديا الإلهية :

أراد دانتى أن يخلق عالمًا جديدًا تسوده الوحدة والصفاء والسلام سعى إلى تحقيقه فى السياسة والفن والحياة، لم يكن دانتى أول من تناول فى " الكوميديا " عالم ما بعد الحياة .

لقد سبقه فى المجال هوميروس وفرجيل ..

يذكر هوميروس فى الإلياذة عالم الموتى والأبالسة وانهيار الجحيم ، وأبواب السماء ونعيم الفردوس . ويتكلم فى الأوديسة عن زيارة أوديسيوس للعالم السفلى وحديثه مع أشباح الموتى . وفى بعض محاورات أفلاطون مثل فيدون وفيدروس والجمهورية كلام عن مصير الأشرار الذين يلقون العذاب فى مهاوى الجحيم ، وعن مصير الصالحين الذين ينعمون بمباهج الفردوس . وتحتوى

ثقافة الإتروسكيين على عالم ما بعد الحياة ، وما يشمله من الشياطين والرعب والفزع . وبعض رسوم مقابرهم تعد مقدمات لجحيم دانتي . ويذكر فرجيل في الإنيادة هبوط إينياس إلى العالم السفلي ، ويصف ما شاهده في مدينة ديس من وحوش خرافية وشياطين وأنهار، وعواصف . ويسرد أنواع الآثمين كمرتكبي خطايا الجسد، والبخلاء، والذين حاربوا أولياء نعمتهم والزناة، ثم ينتقل إلى أرض خضراء سعيدة ، فيها رقص وغناء وذات أضواء، وهي موئل من جرحوا في سبيل أوطانهم ، ومكان الرهبان والصادقين ومن بذلوا خدماتهم للآخرين .

* * *

وفي القرن العشرين درس بعض المستشرقين مسألة العلاقة بين "كوميديا" دانتي والتراث الإسلامي . ومن الأمثلة على ذلك ميجويل آسين بلاثيوس المستشرق الإسباني ، الذي وضع سنة ١٩١٩ كتابًا بالإسبانية عن "العالم الإسلامي لما بعد الحياة في الكوميديا الإلهية" درس هذا العلامة موضوعه نحو عشرين سنة، ووازن بين "كوميديا" دانتي ومؤلفات بعض متصوفي الإسلام مثل محيي الدين بن عربي ، ورسالة الغفران لأبي العلا المعري .

وفي سنة ١٩٤٩ أصدر إنريكو تشيرولي ، المستشرق الإيطالي وسفير بلاده في طهران ، مؤلفًا بعنوان "كتاب المعراج ومسألة المصادر العربية – الإسبانية للكوميديا الإلهية ونشر تشيرولي في

كتابه الترجمة اللاتينية والفرنسية القديمة لإحدى صور المعراج الإسلامي .

* * *

بدأ دانتي بكتابة بعض أناشيد " الجحيم " في فلورنسا باللغة اللاتينية، ثم أعاد كتابتها بلهجة فلورنسا، وهو في حياة المنفى . وانتهى من كتابة " الجحيم " سنة ١٣١٤ وأنهى " المطهر " سنة ١٣١٦ . وكتب " الفردوس " في رافنا . وأطلق دانتي لفظ " الكوميديا " على قصيدته الخالدة، وهو لفظ مأخوذ عن اليونانية القديمة ، بمعنى أغنية تغني بلغة العامة تبدأ في غابة موحشة مظلمة وتنتهي إلى السعادة الإلهية . وسماها الدارسون والناشرون فيما بعد " الكوميديا الإلهية " ومن هؤلاء بوكاشيو في كتابه عن " حياة دانتي " يقول دانتي :إن لقصيدته ثلاثة معان : المعنى اللفظي وموضوعه حالة الروح بعد الموت ، والمعنى الرمزي وموضوعه الإنسان بما يناله من جزاء على ما فعل ، والمعنى الصوفي وموضوعه الخروج بالناس من البؤس في الحياة الدنيا ، وقيادتهم إلى طريق الخلاص والسعادة في الحياة الآخرة .

تمثل " الجحيم " الشباب الحر الطليق المتكبر الثائر ، وتصور الفطرة والغرائز الإنسانية لإشباع ميولها ، وهي الخطيئة والعذاب والمأساة والحياة الدنيا، ويمثل " المطهر " التجربة والنضج والفكر ، والتوبة والتطهير والأمل، ويصور " الفردوس " الكهولة والطهارة

والصفاء والحرية والخلاص والنور الإلهي . و" الكوميديا " كلها مرآة الحياة وقصيدة الإنسانية الكبرى . وهي فن رفيع يهدف إلى تغيير الإنسان وإصلاح المجتمع . وقصد دانتي أن يجعل منها بداية لعصر جديد ، وكأنه أراد بذلك أن يضع كتابًا مقدسًا جديدًا يهدي البشر إلى سواء السبيل .

ولكن كيف السبيل إلى تغيير النفس البشرية ؟ وما الوسيلة إلى إصلاح المجتمع ؟ وجد دانتي أن تغيير العقائد والقوانين والنظم والطبقات والحكومات والمظاهر لا يؤدي إلى إصلاح حقيقي ، وأدرك أن العظات الدينية وتعاليم الفلسفة لا تكفي أغلب الناس لسلوك الطريق القويم ، بل ينبغي تغيير روح الإنسان في باطنه . ووجد أن الإنسان أذن وعين وذوق ، وخوف ورغبة ، وحب وكراهية ويأس ، وأمل ، وينبغي إذًا تصوير الحياة ، وإيضاح خفايا النفس ، ونشر العلم والمعرفة . وأراد دانتي بهذا أن يكون مصلحًا ومعلمًا للبشر . وقد حمل معه كرسي الاستاذية في كل مكان : في البيت والجامعة والقصر والكنيسة والحديقة والطريق . وهو نفسه كان يطلب العلم والمعرفة على الدوام . ولكي يتم نشر المعرفة بين الناس وتتغير نفوسهم ، كان لابد من ان يلجأ إلى أداته السحرية : الفن ويجمع الفن الحياة كلها ، ويضم المعارف والوقائع والاحلام والأماني والمثل وينفذ عن طريق الإبداع إلى النفوس ، ويأسرها بالجمال والقوة والإحساس ، ويربي ، ويهذب ، ويعلم ، ويصقل .

وهكذا آمن دانتي برسالته العليا .

* * *

" الكوميديا " نوع فريد من الشعر ، وليس لها نظير فيما سبق وفيما تلا من القصائد الطويلة، من ناحية بنائها العام ، ومضمونها الشامل المنوع، وهدفها في الدنيا والآخرة . ويمكن أن تسمى " الدانتيادة " على غرار تسمية " إلياذة " هوميروس و " إنيادة " فرجيليو . وينتظمها العدد ثلاثة، رمز الثالوث المقدس . وهي تنقسم ثلاثة أناشيد . " الجحيم والمطهر والفردوس " و " الجحيم " مقسمة إلى مدخل وتسع حلقات ، و"المطهر " مقسم إلى تسعة أفاريز والفردوس الأرضي . و "الفردوس " مقسم إلى تسع سماوات وسماء السماوات . ويتكون كل نشيد من ثلاث وثلاثين أنشودة . يضاف إليها مدخل " الجحيم " فتصبح كلها مائة أنشودة ، أي مربع رقم عشرة ، وهو العدد الكامل ، ورمز الوحدة واللانهاية في العصور الوسطى . وأبياتها ثلاثيات ، وكان دانتي أول من ابتدع طريقتها . وأناشيدها متقاربة الطول . وأقسامها الثلاثة متساوية الطول على وجه التقريب . وتبلغ " الجحيم " ٤٧١٠ أبيات ، و " المطهر " ٤٧٥٥، و " الفردوس " ٤٧٥٨ ، ومجموعها ١٤٢٣٣ بيتاً .

و"الكوميديا" رحلة خيالية إلى العالم الآخر ، استغرقت في نظر أغلب النقاد سبعة أيام ، وبدأت في مساء الخميس ليلة الجمعة

٧ – ٨ أبريل سنة ١٣٠٠ وانتهت يوم الخميس ١٤ أبريل . واستغرقت زيارة دانتى " الجحيم " حوالى ثمان وأربعين ساعة ، وزيارة " المطهر " أربعة أيام واستغرقت زيارة " الفردوس " نهاراً واحداً ، وكان الزمن الباقى للعبور بين " الجحيم والمطهر والفردوس " .

وإذا نحن وقفنا أمام أقسام " الجحيم " ، وجدنا أولاً الأنشودات الثلاث الأولى تشمل المقدمة والمدخل . ثم تأتى حلقات " الجحيم " التسع، والحلقة الأولى هى الليمبو ، الذى يعد كمقدمة للجحيم الحقيقية، ويشغل الأنشودة الرابعة . وتبدأ الجحيم الحقيقية من الحلقة الثانية، وتنقسم قسمين : الجحيم العليا والجحيم الدنيا أو مدينة ديس . وتتكون الجحيم العليا من أربع حلقات، من الثانية إلى الخامسة، وتشمل الأنشودات من الخامسة إلى الثامنة، وهى موضع عذاب من ارتكبوا الخطيئة ، لأنهم لم يتمالكوا أنفسهم أمام الظروف والمؤثرات ، وخطاياهم أخف من غيرهم وتتكون الجحيم الدنيا من أربع حلقات ، من السادسة إلى التاسعة ، وتشمل الأنشودات من التاسعة إلى الرابعة والثلاثين ، وهى مكان عذاب من ارتكبوا خطايا أكبر لانطباع نفوسهم على الشر والفساد .

ألغى دانتى فى " الكوميديا " فوارق الزمان والمكان ، ومزج بين الأسطورة والتاريخ ، وبين الواقع والخيال . وقدم بريشة الفنان

صوراً مأخوذة من الحياة الواقعية .وتساقط أوراق الشجر في الخريف، ونظرات الحكماء الهادئة وكلامهم والعاصفة الجهنمية التي لا تهدأ أبداً . والحمام الذي يطير بأجنحة ثابتة إلى العش الحبيب ، والعاشقين اللذين يذوبان وجداً وهياماً ، والكلب الجائع والوحش الذي يهبط، كما تسقط الأشرعة بقوة الريح ، وسريعي الغضب الذين يتضاربون بالأيدي وقد غمرهم طين المستنقع ، والقارب الذي ينطلق فوق سطح الماء بسرعة فائقة . والضفادع التي تختفي من الأفعى وتغطس إلى قاع المستنقع .

رسم دانتي في " الكوميديا " السهل والجبل، والصحراء والغابة والجدول والنهر والبحر، ومطلع الشمس وغروبها، والنجوم، والحيوان، والنبات. ويمتاز أسلوبه بملاءمة كل المواقف. وعنده الأسلوب العالي، الرفيع، والكلام العامي البسيط الذي يجري على ألسنة الناس . وهو يكتب أقوى الشعر وأفخمه، كما يكتب أجمل الشعر وأرقه . وتصبح لغته أحياناً كنقاب من البلور، أو كنيران متأججة، أو كموسيقى عذبة ترفع الإنسان إلى أسمى الوجود . ونجد عنده ألحاناً رقيقة كحركة الطير، وأخرى عنيفة كغضب الوحش الثائر، وغيرها حزينة كالدمع المنهمر. وأخرى سعيدة كأنغام القيثارة ونجد أبياتاً بطيئة، وأخرى سريعة، وغيرها قوية قاسية، وأخرى راقصة كالاهازيج. وتبدو كلها متسقة متآلفة كألحان السيمفونية، وتنساب روح دانتي بين الأفكار والمعاني

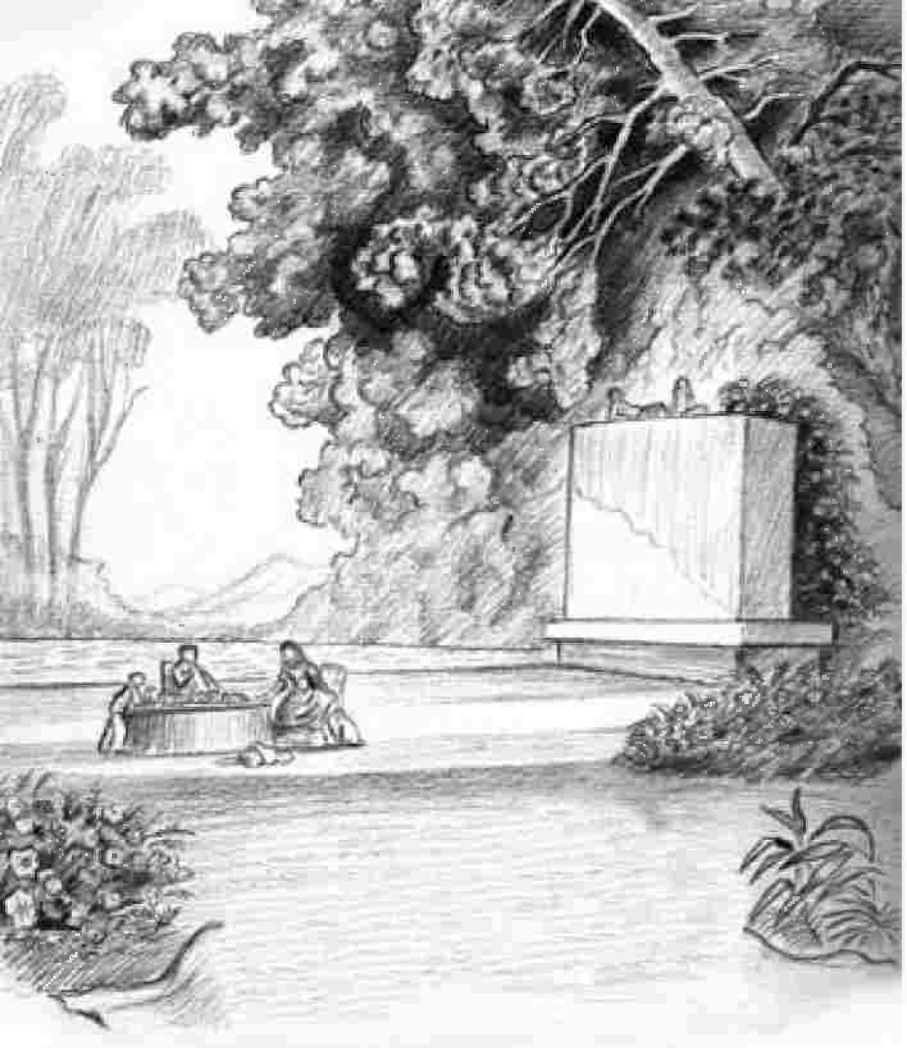

والصور، وتتسلل فى ثنايا الكلمات والمقاطع والحروف الساكنة والمتحركة . التى تشبه الألحان الجريجورية تارة، وألحان بالسترينا أو باخ أو هيندل تارة أخرى. وتشبه أحيانًا موسيقى بيتهوفن أو فاجنر.

يستخدم لهجة فلورنسا العامية، وأحيانا اللاتينية القديمة والوسيطة. ولهجات إيطالية أخرى، ولهجات فرنسية، وخلق لنفسه لغة عظيمة . ومع انه من أعظم شعراء الأرض، فإنه كثيرًا ما يعترف بالعجز. ويصمت، ويستنجد بآلهة الشعر .

وتحدث عما مرت به الكوميديا عبر العصور . .

ولقد بدأت دراسة حياة دانتى وآثاره بعد موته فى القرن الرابع عشر ، فى فلورنسا وأنحاء من إيطاليا وانتقلت هذه الدراسة إلى خارج إيطاليا منذ أواخر القرن الرابع عشر . وظلت هذه الدراسة مستمرة ، تنشط تارة وتفتر تارة أخرى . ومنذ النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، زاد اهتمام الباحثين بالدراسات الدانتية ، ولاتزال هذه العناية قائمة حتى اليوم . وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر انشئت الجمعيات الدانتية فى كثير من دول الغرب ، مثل جمعية دانتى فى سنة ١٨٦٥ ، وجمعية دانتى فى أكسفورد سنة ١٨٧٦ . وجمعية دانتى فى كمبردج فى الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٨٨٣ ، وجمعية الدانتية الإيطالية فى فلورنسا سنة ١٨٨٨ . وعنيت الجامعات الغربية – إيطالية وغير

إيطالية – بالدراسات الدانتية . وعكف الباحثون – وبعضهم من رجال الدين – على دراسة حياة دانتي ، وعلى تحقيق نصوص مؤلفاته الإيطالية واللاتينية ، وترجمت مؤلفاته إلى اللغات الأجنبية، وكتبت الشروح والتعليقات ، والمؤلفات العامة والتفصيلية ، ووضعت المعاجم والفهارس ، ونشرت الدوريات الدانتية . وكتبت المقالات في الدوريات المختلفة ، وطبعت القراءات الخاصة ، ووضعت كتب المراجع ، وعنيت دور الكتب والجامعات الأوربية والأمريكية بجمع المؤلفات الدانتية .

ومن تتسع له الفرصة لقراءة دانتي، يجتذب إليه ، ويصبح تلميذاً له، بل تلميذاً في ميدان العلم والمعرفة على وجه العموم. ولدانتي مئات الألوف من الدارسين والتلاميذ والمعجبين في أنحاء العالم المتحضر كافة، لأنه شاعر فنان حكيم صوفي، عبر أصدق التعبير عن كل ما يقع تحت أعين البشر وإحساسهم . ومن العلماء والأدباء الأعلام في الدراسات الدانتية : باسكولي، وكاردوتشي، ودي سانكتس، ودوفيديو، وزنجاريلي، ودل لونجو : وبيتروبونو، وبابيني، من الإيطاليين، وشلوسر، وباور، وبومر، وفيجلي، وفوسلر، من الألمان، وبارلو، ومور، وتوينبي، وجاردنر، وتوتزر، وسايرز، من الإنجليز، ولونجفلو، ونورتون، ولوول، وهوايت، وويلكنس، وتشاردي، من الأمريكيين وأوزانام، وأوفيت، ولونيون، وجيبه، وماسيرون، من الفرنسيين، وبلاثيوس الإسباني،

وسكارتازينى السويسرى.

ورجع إدوارد مور فى أواخر القرن التاسع عشر ان طبعات كتابات دانتى وترجماتها والمؤلفات والبحوث الدانتية ، تأتى فى المرحلة الثانية بعد الكتاب المقدس فى طبعاته المختلفة والبحوث المتعلقة به ، وسواء أصح هذا الترجيح فى زمنه أم لم يصح ، وسواء أصح بالنسبة إلى الوقت الحالى أم لم يصح ، فإن التراث والمؤلفات الدانتية من أعمق وأضخم ما أنتجته العقول، ومن الأمثلة على ضخامة التراث الدانتى أن نسخ "الكوميديا" المخطوطة فى العالم يتراوح عددها بين ٥٠٠ و ٦٠٠ نسخة . وعندما أراد وبلاردفيسكى أن يضم بعض المؤلفات والمراجع الدانتية إلى مكتبة جامعة كورنيل بالولايات المتحدة الأمريكية – بمناسبة جمعه مكتبة خاصة عن بترارك – توقع أنه سيجمع عن دانتى نحو ٣٠٠ أو ٤٠٠ كتاب . ولكنه عندما قضى بعض الفترات باحثًا منقبًا فى إيطاليا وخارجها عن هذه الكتب هاله ما تجمع لديه منها ، إذ بلغ ٧٠٠٠ مجلد ، ووضع لها تيودور كوخ فهرسًا طبع فى نيويورك ١٨٩٨ – ١٩٠٠ ، ويقع فى مجلدين، يبلغ عدد صفحاتهما أكثر من ٦٠٠ صفحة بالحجم الكبير وأصدرت مارى فاولر ملحقًا بالإضافات الدانتية حتى سنة ١٩٢٠ ، وبذلك بلغت هذه المجموعة وقتئذ ٩٧٧٥ كتابًا، ويحتوى كتاب باسيريني وماتزى عن المراجع والبحوث الدانتية فى الفترة من سنة ١٨٩١ إلى سنة ١٩٠٠ على ٥٩٤ صفحة ويشمل ٤٣٩٢ رقمًا أى ٤٣٩ رقمًا فى السنة مع إغفال المستخرجات، وبلغ

التراث الدانتي الذي صدر في النصف الأول من القرن الحالي أكثر من ٢٢٠٠٠ رقم وأورد إيضولا في كتابه عن المراجع الدانتية من سنة ١٩٢٠ إلى سنة ١٩٣٠ أورد ٣٧٥٣ رقماً.

وترجمت مؤلفات دانتي وعلى الأخص " الكوميديا " إلى كثير من لغات العالم . مرات عديدة في كل لغة . فقد ترجمت مثلاً إلى الإنجليزية أكثر من ٧٥ ترجمة جزئية وكاملة ، منها أكثر من ٤٠ ترجمة كاملة . وترجمت " الجحيم " وحدها إلى الإنجليزية أكثر من ٢١ ترجمة ، وترجم " المطهر " أكثر من ٨ مرات ، وترجم " الفردوس " أكثر من ٥ مرات . ومن أحدث الترجمات الإنجليزية " الكوميديا " ترجمة دوروثي سايز والتي صدرت في طبعة بنجوين ست مرات من سنة ١٩٤٩ إلى سنة ١٩٥٥ وأصدرت ترجمة " المطهر " شعراً في الطبعة ذاتها سنة ١٩٥٥ .

كان متوسط طبع " الكوميديا " في نصفها الإيطالي في أثناء القرن التاسع عشر أكثر من ٤ طبعات في العام ، في أوساط الدراسات الدانتية في العالم . وفي القرن نفسه بلغ متوسط طبعات مؤلفات دانتي كاملة وجزئية والمقالات والبحوث في الدوريات المختلفة أكثر من ٢٠٠ في العام، في إيطاليا والأراضي التي تتكلم الإيطالية..

هذه بعض أمثلة عن مدى عناية العالم المثقف بدانتي والدراسات الدانتية ، التي لاتزال ماضية إلى الأمام حتى اليوم ،

بعناية فائقة وصبر عظيم .

وكذلك وجد دانتي عناية من جانب رجال الفن . فقد تناول دانتي وبعض نواح من مؤلفاته الرسامون والمصورون والنحاتون والموسيقيون ، الذين وضعوا رسوماً كروكية ، أو صوراً ملونة وغير ملونة ، وصنعوا التماثيل ، وألفوا الألحان التي تعبر عن بعض ما جال في ذهن دانتي أو جرى به قلمه . ومن هؤلاء: جوتو، وسنيوريلي، وبوتتشلي، ومايكل أنجلو، وتزاندوناوي، من الإيطاليين وديلاكروا، ودوريه، ورودان، من الفرنسيين، وبليك ووستماكوت وهوليدبي، من الإنجليز .

* * *

جمهورية أفلاطون

عالم اليوتوبيا أو المدينة الفاضلة

جمهورية أفلاطون
عالم اليوتوبيا أو المدينة الفاضلة

أولاً : حياة أفلاطون ..

أفلاطون فيلسوف من طراز خاص . أنشأ فلسفة جامعة ووضع نظاماً يشمل نواحي الفكر وجوانب الحقيقة .

أخذ أفلاطون من سابقيه خير ما لديهم . قطف أجمل زهور الفلاسفة الفيثاغوريين والإيليين وهرقليطس وسقراط، نسق أفلاطون من كل ذلك أروع باقة فكرية تعيش إلى يومنا هذا .

ولد عام ٤٢٨ ق . م لأسرة تميزت بالنسب العريق ، ونشأ نشأة شباب أثينا الأرستقراطي، فدرس على السوفسطائيين وسقراط، يقول أفلاطون: "عندما كنت يافعاً احسست بما يحسه أغلب الشباب؛ إذ كنت أتوق إلى ذلك اليوم الذي أستطيع فيه التصرف في مصيري، والاشتراك في العمل السياسي، وهاك الحال التي وجدت عليها أمور الدولة .

سقطت الحكومة، وقامت ثورة تسلم الحكم على إثرها واحد وخمسون رئيساً ، أحد عشر في المدينة وعشرة في ميناء البيرايوس ، أما السلطة العليا المطلقة فقد كانت في يد ثلاثين . وكان بينهم كثيرون أقاربي ومعارفي ولقد دعوتي لاختيار ما يناسبني من

المناصب ، وكنت اعوّل عليهم الكثير من الآمال ولكنهم للاسف خيّبوا آمالي ، ومن فظائعهم أنهم أرادوا دفع سقراط، أفضل رجال عصره إلى القبض على احد المواطنين، ولكنه رفض الاشتراك في جرائمهم .

فإذا بهم يقدمون سقراط صديقنا للمحاكمة، فيدينونه ويعدمونه وانتهى أفلاطون إلى ضرورة أن يتولى الفلاسفة الحقيقيون الحكم أو يتحول الحكام إلى فلاسفة" .

لجأ أفلاطون إلى ميجارا بعد موت سقراط، ثم بدأ سلسلة رحلاته الكثيرة ومنها رحلته إلى مصر وإيطاليا وصقلية ، واتصل ببلاط حاكم مدينة سيراكوزا بصقلية، ديونيسوس الاول، وتعرف هناك بديون صهر ديونيسوس، وقامت بينهما صداقة قوية انتهت إلى الاشتراك في تدبير المؤامرات السياسية لتغيير الحكم في تلك المدينة، وانتهى الأمر بسوء العلاقة بين أفلاطون وديونيسوس إلى حد أن سلّم ديونيسوس أفلاطون أسيراً لسفير أسبرطة عدوة مدينته أثينا فعرضه للبيع واقتداه أحد أصدقائه وبدعى أنكريس.

استطاع أفلاطون أخيراً أن يعود إلى أثينا، وهناك أسس مدرسة في بستان لبطل يسمى أكاديموس، وسميت مدرسته تبعاً لذلك باسم الاكاديمية .

كان تأسيس الاكاديمية حدثًا مهمًّا في حياة أفلاطون وفي

حياة الفكر الغربي بأسره؛ إذ ظلت قائمة ما يقرب من عشرة قرون وإلى اليوم الذي أمر الإمبراطور جستنيان بإقفال المدارس الوثنية في العالم الروماني المسيحي عام ٥٢٩م .

كان أفلاطون يبغي من تعليمه في الأكاديمية هدفًا سياسيًا هو تكوين فئة من الفلاسفة المستعدين لنشر نظريات اجتماعية وسياسية في أنحاء بلاد اليونان .

يذكر بلوتارك أن أفلاطون أخرج سياسيين ومشرّعين أمثال ديون في صقلية، وبتون وهيراقليدس في ثراقيا، وأوردوكس وأرسطو اللذين شرّعا قوانين لكنيدوس وأسطاغيرا .

وكان لأفلاطون محاضرات يلقيها في الأكاديمية ومؤلفات أخرى كتبها للجمهور ..

عنى الباحثون بمحاورات أفلاطون وصنّفوها تصنيفات مختلفة، غير أن أهم هذه التصنيفات ما اعتمد على تطور لغة أفلاطون على مدى حياته الطويلة، فرتبت إلى ثلاث مجموعات ، مجموعة محاورات الشباب ويدور أكثرها حول حياة سقراط وآرائه، ومجموعة النضج، ومجموعة الشيخوخة وفيهما تطورت نظرياته عما كانت عليه في عهد الصبا .

تعد محاورة الجمهورية أهم ما كتب أفلاطون، لما تضمنته من نظريات خاصة بحياة الإنسان والمجتمع، وكان لها في تاريخ الفلسفة فيما بعد تأثير لم يرَ مثله كتاب من كتب الفلسفة .

تسربت نظرياتها إلى كتّاب العالم الروماني وفلاسفة العالم الإسلامي والمسيحي في العصر الوسيط ، تأثر بها من القدماء شيشرون في آرائه عن حكم الطغيان والديمقراطية .

وفي العالم الإسلامي عرف الفارابي جمهورية أفلاطون وتأثر بها في مدينته الفاضلة ، كما تأثر بها القديس أوغسطين في مدينة الله ، وتوماس كامبانيلا في مدينة الشمس، وتوماس مور في اليوتوبيا .

* * *

محاورة " الجمهورية " تعرض علينا صورة كاملة للمدينة العادلة، وهي أقيم مؤلفات أفلاطون وأطولها، وتشتمل على كل شيء: أخلاق ، وسياسة وميتافيزيقا، وهي في التربية، وفلسفة التاريخ ودراسة اجتماعية، والموضوع الرئيسي للمحاورة هو العدالة وكيف تتحقق .

إن ما يشغل بال أفلاطون ليس هو الدولة وإنما الإنسان، ليس هو المدينة من حيث هي كذلك بل المدينة العادلة، المدينة التي يمكن أن يعيش فيها الإنسان العادل دون أن يخشى الحكم عليه بالنفي أو بالموت . هذه المدينة العادلة يشيدها أفلاطون أمام أعيننا ، وهو يؤمن بقضية لها أهمية أساسية ، هي الإنكار الجذري للفلسفة الاجتماعية السوفسطائية ، التي يعارضها سقراط ..

فالمدينة ليست مجموعة أفراد ، وإنما تشكل وحدة واقعية ، وكائنًا حيًّا " روحيًّا " ومن هذه الحقيقة ينشأ بين تكوينها وتركيبها

وبين تركيب الإنسان تماثل يجعل من المدينة إنسانًا حقيقيًا كبيرًا ، ومن المدينة جمهورية صغيرة . ونظرًا لأن هذا التماثل يقوم على الاعتماد المتبادل بين الاثنين، فإنه من المستحيل دراسة الإنسان دون أن ندرس في الوقت نفسه المدينة التي هو جزء منها .

ويقدم لنا أفلاطون أبطال المحاورة، و هم : كيفالس ، ثرى أجنبي استوطن أثينا ، وابنه ووريثه بوليمارخس ، وصديقه السوفسطائي ثراسيماخوس، وأخوا أفلاطون أديمنتس وجلوكون .

ثانيا : محاورة الجمهورية :

الموضوعات التي وردت في محاورة الجمهورية يمكن تلخيصها فيما يلي:

أولاً : تعريف العدالة وشروط تحققها في الدولة وفي الفرد ويستغرق الباب الأول إلى الباب السابع .

ثانيا : مصادر الفساد في الدولة وفي الفرد ويستغرق البابين الثامن والتاسع .

ثالثًا : آراؤه في الفن وفي النفس الإنسانية ويستغرق الباب العاشر .

* * *

تعريف العدالة وشروط تحققها

في الباب الأول من الجمهورية ثلاثة آراء مختلفة تعبر عن ثلاثة مواقف متباينة من مشكلة العدالة: رأى العامة أي رأى كيفالوس الشيخ وابنه بوليمارخوس، ثم رأى تراسيماخوس السوفسطائي، ويمثل المذاهب الجديدة في الأخلاق والسياسة، ثم رأى سقراط وأفلاطون وموقفهما المثالي الأرستقراطي في العدالة.

يلتقي سقراط عند بوليمارخوس بن كيفالوس بعدد من الشخصيات بعضها معروف وبعضها غير معروف، مثل كيفالوس الشيخ الثري وأبنائه والسوفسطائي تراسيماخوس، وأخوي أفلاطون أديمانتوس وجلوكون ابني أريستون. يتقدم بوليمارخوس ابن كيفالوس بتعريف للعدالة استمده من الشاعر سيمونيدس، يقول: إن العدالة تقضي بأن يرد الإنسان لكُل ماله، ويقول: إن العدالة هي معاملة كلٍّ حسب ما يستحق. أو معاملة الأصدقاء بالخير والأعداء بالشر.

يرفض الجميع هذا التعريف لأنه ينطوي على تناقض؛ إذ كيف يقترف العادل ظلمًا بعدالته؟ تراسيماخوس يعترض معلنًا ضيقه من جدل سقراط وتلاعبه بالألفاظ ويقدم تعريفًا ثانيًا للعدالة.

يقول: إن العدالة ليست سوى العمل بمقتضى مصلحة الأقوى، ويفسر معنى الأقوى بقوله: إن الحاكم يفرض على المحكوم

مصلحته، والعدالة هي ما تفرضه إرادة الحاكم أو الأقوى . لكن هذا التعريف ، يفيد أن العدالة متغيرة بتغير نظم الحكم، ويقترب من فلسفة السوفسطائيين معارضي سقراط وأفلاطون، وعلى رأسهم بروتاجوراس القائل: إن الإنسان هو مقياس كل شيء .

وفي مقابل ذلك يأتي سقراط وتلميذه أفلاطون بفلسفة مثالية تؤكد أن للقيم الأخلاقية وجوداً ثابتاً لايتغير بتغير الزمان أو المكان، كما أنها مطلقة لا تحتمل أي تغيير أو تبديل .

ويصف سقراط العدالة في النفس الإنسانية فيقول: إن لكل شيء وظيفة خاصة به، فكما أن للعين وظيفة لاتشاركها فيها الاذن وفضيلتها في أدائها لهذه الوظيفة، كذلك يكون للنفس وظيفة هي الحياة وفضيلتها في حسن توجيهها للحياة لتبلغ السعادة ، وما العدالة إلا فضيلتها التي هي وسيلتها إلى الحياة السعيدة .

في الباب الثاني شخصية تؤيد مذهب تراسيماخوس هي شخصية جلوكون الذي يقول: إن الناس لا ترغب في العدالة لذاتها، ولايلتزمون بها إلا مجبرين، حتى لا يصيبهم أذى من غيرهم إن عرفوا بالظلم، ويستشهد جلوكون على رأيه هذا بأسطورة خاتم جيجس التي تتلخص في أن راعياً يسمى جيجس كان يرعي مواشي لملك ليديا، ففاجأه زلزال عنيف انشقت الأرض على إثره فنزل في غور منها ليجد حصاناً حديدياً بجوفه جثة رجل يفوق في الحجم جسم الإنسان.

وكانت الجثة عارية ليس بها سوى خاتم فى اصبعها فأخذه جيجس وخرج من باطن الغور إلى ظهر الأرض، وعاد إلى رفاقه من الرعاة، وبينما هو جالس بينهم، أدار الخاتم فى إصبعه فاختفى من بينهم ولما أداره مرة أخرى عاد للظهور وكرر هذه العملية مرات يختفى فيها ثم يعود للظهور ، ولما كان على الرعاة أن يقدموا للملك تقريراً عن ماشيتهم تطوع جيجس بأن يحمل الرسالة إلى الملك، فلما دخل القصر قتل الملك واستولى على المُلك .

لنفرض أن هناك اثنين من الناس أحدهما عادل والآخر ظالم، وأننا وهبناهما خاتمين من هذا النوع، ألا نجد العادل فيهما يستوى مع الظالم مادام سيخفى عن الناس ظلمه ومادام الظلم وسيلته إلى المنفعة والعدل مضيعة لمصالحه؟

ينهض سقراط للرد على هذا الرأى لكى يثبت لهم العكس، وهو أن للعدالة ذاتها قيمتها، وأنها الخير الوحيد للنفس الإنسانية، وبها وحدها يدرك الإنسان السعادة .

فيقول : لنفرض أن قوماً من ضعاف البصر أرادوا أن يقرأوا لوحة مكتوبة بالأحرف الصغيرة، وأن أحدهم وجد المكتوب فيها مكبراً فى لوحة كبيرة ، ألا يشير عليهم بأن يقرأوا الكتابة مكبرة ثم يعودوا إلى مقارنتها فى النقش الصغير ؟ إننى سأتبع نفس الطريقة فى بحثى عن العدالة.

أليست العدالة موجودة في الدولة كما هي موجودة في الفرد ؟ أليست الدولة أكبر من الفرد ؟ ومادام الأمر كذلك فسيكون من السهل علينا أن نتبين سماتها وطبيعتها عندما ننظر إليها في الدولة، وبعد ذلك نقارنها بالعدالة في الفرد لنجد التشابه بين الصورة المكبرة والصورة المصغرة.

* * *

دولة العدالة

يقول أفلاطون إن الفرد وحده ضعيف، ومن ثم يكون الاجتماع ضرورة تحتمها الحياة الإنسانية .

وينشأ عن اجتماع الأفراد الحاجة إلى تقسيم العمل فيما بينهم من أجل توفير كافة حاجاتهم الضرورية ، وتكون حياتهم في بادئ الأمر بسيطة وطبيعية، وحاجات الإنسان تتزايد والناس يتذوقون الفنون والآداب بارتقائهم في أساليب الحياة يطلبون الترف وتزيد حاجاتهم إلى الكماليات فتشتبك المصالح وتنشأ الحروب .

ويؤكد أفلاطون انقسام المجتمع إلى ثلاث طبقات متمايزة بحكم الطبيعة، ويرى ان لكل طبقة من هذه الطبقات الثلاث وظيفة هيأتها لها الطبيعة وخصتها بها بحيث لا ينبغي لها أن تتدخل في عمل الطبقة الأخرى .

ويترتب على ذلك أن تختص الطبقة الممتازة في المجتمع بالحكم ولايشاركها فيه أحد من الطبقات الاخرى وخاصة الطبقة المنتجة؛ لأنها لا تملك الحكمة ولا التربية ولا التعليم الذي يهيؤها للاشتراك فيه، يخص كل طبقة بفضيلة تناسب طبيعتها، ففي حين يُختص الحكام بفضيلة الحكمة، ويختص الحراس بفضيلة الشجاعة، فإن فضيلة الطبقة المنتجة من الشعب هي في التزامها العفة أو الاعتدال تعنى بتنظيم ملذاتها وانفعالها بحيث تتحكم دائمًا في

شهوتها .

هذه الفضائل الثلاث هي الشروط الواجب توفرها في طبقات الشعب لكي تتوفر العدالة في الدولة . وتعريف العدالة بناء على ذلك يتلخص في تأدية كل فرد في الدولة للوظيفة التي هيأتها له الطبيعة، والتزامه بالفضيلة المناسبة لطبقته، وتضيع العدالة في رأى أفلاطون لو شارك الإسكافي أو النجار في عمل الفيلسوف الحكيم الذى له وحده حق توجيه الحكم، وبهذا يصدم أفلاطون أول مبادئ حكم الديمقراطية في عصره وفي كل عصر.

ولنقرأ المشهد التالى من المحاورة : سقراط : لتعلم إذن أننا منذ البداية وعندما شرعنا في تأسيس مدينتنا أخذنا على عاتقنا واجبًا هو أن نبين ما هي العدالة . ولقد ذكرنا وكررنا مرارًا إن كنت تذكر أنه لاينبغي لاحد أن يمارس إلا عملاً واحداً في المجتمع وهو العمل الذى هيأته له الطبيعة . — أجل قلنا ذلك .

سقراط : وقلنا إن العدالة تتلخص في انصراف كل إلى عمله وبدون أن يتدخل في أعمال الغير .. أى أن العدالة هي في اهتمام كل بما يخصه . أتعلم الاساس الذى نستند إليه هذه الفكرة ؟

– لتعلمنى إياها .

سقراط : بهيأ لي أن ما تحتاج إليه المدينة بعد الفضائل الثلاث التى ذكرناها الاعتدال والشجاعة والحكمة ليس إلا الدعامة التى

نشأت عنها هذه الفضائل، وبفضلها تستمر في الوجود وهذه الفضيلة هي العدالة .

- أجل بلا شك .

سقراط : فإن كنا نبحث عن أي الفضائل يؤدي إلى كمال مدينتنا أفلا يصعب علينا تحديدها حين نقول إنها في انقياد المحكوم للحاكم أم أنها مبادرة الجند في عمل ما يجب عمله أم في حكمة الرؤساء أم في انصراف كل من في المدينة سواء كانوا أطفالاً أو نساء أو عبيداً أو أحراراً، حكاماً أو محكومين إلى أعمالهم الخاصة دون تدخلهم في أعمال غيرهم؟

- أجل من الصعب تحديد ذلك .

سقراط : فالقوة التي تلزم بها الدولة أفرادها كلاً على أداء عمله ستكون على نفس القدر من الأهمية مع فضائل الحكمة والشجاعة والاعتدال .

- بالتأكيد .

- أليست هذه القوة التي تساعد مع باقي الفضائل الأخرى على كمال الدولة هي العدالة ؟

- أعتقد ذلك .

سقراط : ولنبحث المسألة من جهة أخرى لنرى إن كنت متفقاً

معى . أليس الرؤساء هم الذين يتولون الحكم فى القضايا ؟

– نعم بلا شك .

سقراط : وفى أحكامهم هذه بأى شيء يلتزمون إن لم يكن فى منع الأفراد من الاعتداء على الغير أو سلب أملاك الغير .

– نعم تلك غايتهم .

سقراط : لأن ذلك هو العدل .

– نعم .

سقراط : وهذا أمر آخر يدعو إلى الموافقة على أن اهتمام كل بما يخصه هو العدالة بعينها .

– هذا صحيح .

سقراط : ولنبحث معى إن كان يمكن للنجار أن يعمل عمل الإسكافى أو الإسكافى يعمل عمل النجار أو أن يتبادلا أدوات العمل والمكافأة، وإن كان يجوز لأحد أن يعمل العملين أو أن يتبادل الناس أعمالهم ألا يظهر لك أن المدينة ستعانى خسارة كبرى؟

– خسارة ليست بالكبيرة .

سقراط : لكن إن تصادف لأحد الصناع وساعده الحظ

فوهبته الطبيعة مالاً ووفرة في الأنصار والأتباع، فظن أنه بكل هذه الميزات يستطيع أن يدخل ضمن طبقة المحاربين، أو بالمثل لو بدا لأحد المحاربين أن يمارس حق الحكام بغير مقدرة أو تراءى لأحد أن يمارس كل هذه الأعمال دفعة واحدة، ألا ترى معي أن في هذا يكون دمار المدينة ؟

– نعم بالتأكيد .

سقراط : إذن فالتعدي على أعمال الغير واختلاط طبقات المجتمع الثلاث ، ليس في الواقع إلا الفوضى بعينها والدمار بل هو جريمة لاشك فيها " .

○ ○ ○

هذه خلاصة رأي أفلاطون في العدالة الاجتماعية ساقه على لسان سقراط في محاورة الجمهورية . وما من شك في أن أفلاطون بهذه النظرية قد أوضح اتجاهاً مثالياً في السياسة والحكم . فقد أخذت الديمقراطية في عصره بمبدأ اختيار الحكام والقضاة بالانتخاب وبالقرعة إمعاناً منها في المساواة بين جميع أفراد الشعب سواء كانوا أغنياء أو فقراء، وأخذت أيضاً بمبدأ التصويت في الأمور العامة فاحترمت رأي الأغلبية العددية في كل رأي .

أما أفلاطون فقد رأى على العكس من ذلك أن رأي الأكثرية وتدخلها في أمور السياسة والحكم مصدر الفوضى؛ ذلك لأن

العدالة عنده تقضي بأن يتخصص للحكم طبقة أرستقراطية لها بالطبيعة مواهب الحكمة والشجاعة التي لا تتوفر عند باقي طبقات الشعب وهي طبقة الحراس .

* * *

معنى الشيوعية فى الجمهورية

يقول أفلاطون : إنه يطبق النظام الطبيعى عندما ينادى بالشيوعية وبمساواة النساء والرجال فى طبقة الحكام، ألا ترى الأنثى من كلاب الصيد والرعى تشارك الذكر كل شىء ؟ كذلك ستكون نساء دولتنا يربين تربية الرجال وينالقين تعليم الرجال ثم يولين نفس المهام فى السلم وفى الحرب كالرجال على السواء . ذلك أن لهن ما للرجال من مهارات فى العمل، أما اختلاف الجنس فليس سبباً يمنعهن من مزاولة ما هن جديرات به من أعمال.

ومادامت المرأة ستشارك الرجل فى جميع الاعمال الخاصة بطبقة الحكام فقد ترتب على ذلك إلغاء نظام الزواج والاسرة فى طبقة الحراس . . فلن يختص أحد من هذه الطبقة بزوجة أو بولد وإنما ستكون جميع النساء والأولاد مشاعاً بينهم . ويربى الأطفال فى دور حضانة ترضعهم الأمهات وتتركهم لمربيات مختصات حتى يتفرغن لأعمالهن . ويحدد للنساء والرجال فى هذه الطبقة سناً؛ لا ينبغى لأحد منهم أن ينجب قبل بلوغها ولا بعد تجاوزها؛ حتى لاينشأ الأطفال ضعفاء، إذ يبغى أفلاطون بهذه الفكرة المحافظة على السلالة النقية التى يوليها الحكم ويحرم زواج الإخوة وينظم الزيجات فى الخلفاء حتى يتحكم فى إنجاب نسل ممتاز.

قصد أفلاطون بشيوعية النساء والأولاد إزالة أسباب الخلاف بين أفراد طبقة الحراس، ومن أجل ذلك ذهب إلى تحريم الملكية

الخاصة على أفراد هذه الطبقة وطالب بأن يعيشوا عيشة مشتركة تكفلها لهم الدولة.

* * *

كيف يحكم الفلاسفة العالم؟

يقول أفلاطون :

« ما لم يتولى الفلاسفة الحكم فى الدول أو أن يتحول من نسميهم ملوكًا وحكامًا إلى فلاسفة حقيقيين ، وما لم نر القوة السياسية تتحد بالفلسفة وما لم تسن قوانين دقيقة تبعد من لم يجمعوا هاتين القوتين فلن تنتهى الشرور من الدول بل من الجنس البشرى » .

الفلسفة عنده محبة الحكمة أو محبة المعرفة والسعى إلى الحقيقة . فأين الحقيقة ؟

ليست الحقيقة عند أفلاطون فى الظواهر المحسوسة التى تتوالى فى بصرنا وسمعنا؛ لأن هذه الظواهر نسبية متغيرة، أما المطلق الدائم الحقيقى فهو مثالها العقلى، الجمال فى ذاته، والخير فى ذاته، وهذه المثل هى وحدها موضوع علم الفيلسوف . لذلك يفرق أفلاطون بين الظن وهو المعرفة التى تقف عند حدود الظواهر الحسية وبين العلم وهو المعرفة اليقينية التى تدرك الحقائق العقلية أو المثل .

يُعرف لأفلاطون تشبيه مشهور بتشبيه الكهف يصور فيه عامة الناس مسجونين فى كهف مظلم منذ الصغر، وقد قيدوا فى هذا

الكهف منذ ولادتهم، وأداروا وجوههم إلى شاشة على جدار الكهف تنعكس عليها ظلال ما هو فيه خارج الكهف من ضوء ينير عالمًا من الناس الذين يسيرون حاملين عرائس خشبية على أكتافهم .

ولما كان هؤلاء المسجونون لايستطيعون أن يلتفوا وراءهم فإنهم يظنون الظلال التى يرونها على جدار الكهف حقائق ويتوهمون ما يسمعونه في خارج الكهف من أصوات أنها صادرة من هذه الأشباح، فإذا تمكن أحدهم من أن يخرج من الكهف ليرى الحقائق فى الخارج وعاد هذا الرجل ليخبرهم أنهم واهمون فيما يظنونه حقيقة فإنهم يسخرون منه وينكلون به .

وكذلك حال الفيلسوف بين قومه؛ لأنه يكشف للناس وهمهم بعد أن يرتفع من إدراك المحسوس إلى المعقول معتمداً في ذلك على منهج الجدل ليصل إلى قمة عالم المثل الذى هو مثال الخير .

يشرح أفلاطون فى الأبواب من الخامس إلى السابع فلسفته فى الوجود؛ لأنه يعد دراسة الفلسفة أهم شرط من شروط تكوين الحكام فى الدولة العادلة وهى وحدها الدراسة الكفيلة بالارتفاع بهم إلى القيم والمبادئ المثالية التى ينبغى أن تقوم عليها المدينة الفاضلة .

العدالة فى الفرد :

يقول أفلاطون: إن العدالة فى الفرد لا تختلف عنها فى المدينة فهى صورة مصغرة لها .

العدالة فى النفس الفردية هى ائتلاف قوى النفس المختلفة لتقوم كل منها بالوظيفة الخاصة بها وتتوفر لها الفضيلة المناسبة لها ،فالقوة الشهوانية فضيلتها العفة تلزمها حدودها وتمنعها تجاوز حدود الاعتدال والقوة الغضبية فضيلتها الشجاعة تبين لها ما ينبغى لها المبادرة بفعله وما ينبغى لها تجنبه، وللقوة العاقلة فضيلة خاصة بها هى الحكمة التى تبين لها الخير الأقصى الذى ينبغى أن تتجه له النفس .

* * *

متى يظهر الفساد فى المدينة ؟

على أفلاطون أن يبحث فى الدول الفاسدة وصفات مواطنيها وحكامها ، وغايته فى النهاية أن يبين الفرق الشاسع بين سعادة المدينة الفاضلة وشقاء المدينة الظالمة . يمكن أن نقسم بحث أفلاطون فى هذا الموضوع إلى ثلاثة أجزاء هى :

(أ) وصف التيموقراطية وتحولها إلى الديمقراطية .

(ب) وصف الطغيان .

(ج) سعادة الفيلسوف ومقارنتها بشقاء الطاغية .

من التيموقراطية إلى الديمقراطية :

عندما يتحقق الدستور المثالى فى الواقع يتعرض لظروف التغير والنقص ، فتتحول المدينة الفاضلة من دولة أرستقراطية تحكمها عقول الحكماء إلى دولة تيموقراطية تحكمها العاطفة والحماسة والقوة الغضبية .

وترجع أهم أسباب تغير الحكم وفساده إلى الفساد الذى يصيب حكام المدينة . إذ يحدث نتيجة عدم مراعاة قوانين الوراثة والزيجات الخاطئة أن يعقب الحكام نسلاً لايماثل طبيعة آبائه فى الأصالة والامتياز ، ويقع الحكم فى يد طبقة يتغلب على طبيعتها الحقد والكراهية وتسودها الحماسة للحرب والنضال فتكون دولة

الأرستقراطية الحربية أو التيموقراطية.

أخلاق مواطن هذه المدينة أخلاق المحارب الذى لايتحمس لشيء قدر حماسته للرياضة والصيد والحرب، ولا يقدر من الأعمال سوى الأعمال التى تجلب المجد والشرف وبتقدمه فى العمر يأخذ فى تقدير الثروة ويتجه إلى لذات الحياة، ذلك لأن القوة العاقلة فيه قد تخلت عن القيادة للقوة الغضبية والحماسية.

وإذا ساءت حال التيموقراطية تحولت إلى أوليجارشية أى حكومة القلة التى تسعى إلى جمع المال، بحيث لا يكون للفقير فيها أى نصيب ولا للفضيلة أى حساب. وينتهى الأمر بانقسام المدينة إلى مدينتين :مدينة للاغنياء ومدينة للفقراء كل منهما تتآمر على الأخرى ويملؤها الشك منها.

وفى هذه الدولة لايقدس الإنسان شيئًا إلا الحرية وموطنها الديمقراطى هو الذى ترك العنان لكل شهواته ولقب المخازى فضائل حتى جعل السفاهة حسن تربية، والفوضى حرية، والتهتك رقيًا، والوقاحة شجاعة.

ويعد أفلاطون حكم الطغاة أسوأ أمثلة الحكم ويرى أنه فى ظل حكم الطغاة تصل الفوضى باسم الحرية إلى أسوأ درجاتها بحيث تنقلب الأوضاع فيتحول الحاكم إلى محكوم، والمحكوم إلى حاكم، حتى نظام الأسرة يختل فلا يجرؤ الأب على توجيه ابنه بل

بخشاه إذ يعد الابن نفسه مساويًا لأبيه، ويعد الغريب نفسه نداً للمواطن ويعد الرقيق نفسه مساويًا في الحرية لسيده وعندئذ تثور حتى الدواب على أوضاعها .

وتؤدى زيادة الحرية إلى تقبضها إلى العبودية، وذلك حين يختار الشعب مدافعاً عنه لكنه سرعان ما ينقلب إلى طاغية يتخلص ممن نصبوه حاكماً، ويحيط نفسه بحراس من المرتزقة، ويسوق شعبه إلى الحروب ولايجد من يمدحه إلا العبيد وإلا شعراء التراجيديا الذين يحبذون حكم الديمقراطية والطغيان؛ لذلك لايتردد أفلاطون في طردهم من مدينته الفاضلة.

* * *

شقاء الطاغية وسعادة الفيلسوف

النفس الإنسانية تنقسم إلى ثلاث قوى تناسبها ثلاث لذات . فقوة عاقلة لذتها الفكر والمعرفة، وقوة غضبية تثور للكرامة، وقوة شهوية تسعى إلى كافة اللذات المادية . والفيلسوف هو من سلم القيادة فى حياته لتوجيه القوة العاقلة، فكان سعيه دائمًا وراء الحق، وأصبحت لذته الكبرى فى المعرفة وفى الفكر، أما الطاغية فهو من انقاد لأسفل قوى النفس للقوة الشهوية .

إن قارنا بين حياة الفيلسوف وحياة الطاغية تتبين سعادة الفيلسوف وشقاء الطاغية . فاللذات التى يطلبها الحكيم من نوع اللذات العقلية التى تهب النفس اتزانًا ونظامًا يكسبها الفضيلة ويخضع قواها لتوجيه العقل وإدراك الخير فى النهاية .

أما لذات الطاغية فهى من قبيل اللذات الحسية . والخلاصة أن الحكمة والفضيلة هما سبيل الإنسان إلى السعادة .

* * *

الفن والنفس فى الجمهورية

نقد أفلاطون للفن وحديثه عن مصير النفس مكملاً لبحثه فى العدالة، لأنه يهاجم الشعر والتصوير من أجل العدالة، وبحثه فى مصير النفس الإنسانية يهدف إلى تأكيد قيمة العدالة وإثبات أنها الخير الوحيد الذى يناسب النفس الإنسانية .

(أ) نقد الفن :

بنى أفلاطون نقده للفن على أساس نظرياته فى الجمهورية .

ويعارض شعر هوميروس وشعراء التراجيديا من وجهة نظر المصلح الاجتماعى، ويعرضه أيضًا باسم الفيلسوف الأخلاقى واكتمال فضيلتها أزعجه فى الشعر النزعات العاطفية عند شعراء التراجيديا وخاصة معاصره يوريبيدس وأحنقه من التصوير أنه أصبح واقعيًا يعكس الأشياء كما هى مرئية ومنظورة بكل تفاصيلها ولا يتعمق إلى ما ينطوى عليه من معنى مثالى وأخلاقى .

أصبح المصور أشبه بحامل مرآة يديرها فى كل الاتجاهات فيصنع بها كل ما يشاء بسرعة فائقة وبغير معرفة منه ولا فهم، ولهذا اتهم الشعراء والمصورين بأنهم يقدمون خداعًا يضلل النفس عن الحق ويخل اتزانها خاصة شعراء التراجيديا الذين يثيرون عاطفة الجماهير بما يعرضونه على خشبة المسرح من مآسٍ عنيفة وانفعالات عاصفة .

فن التصوير الذى يصفه أفلاطون بانه خداع ومحاكاة للواقع إنما ينصب على اتجاه واحد هو اتجاه مصورى عصر أفلاطون الذى مال إلى الواقعية وأخذ بقواعد فن المنظور والخداع البصرى والبراعة فى استخدام درجات اللون لنقل المنظر المرئى للمتذوق، وكان من أشهر أتباع هذه المدرسة فى التصوير أبولودوس وبراموس وزوكسيس ..

أما شعراء التراجيديا فهم وحدهم المقصودون بنقد أفلاطون للشعراء لأنهم أنصار حكم الديمقراطية والطغاة، ولأنهم يثيرون عواطف الجماهير ويقوضون مثل البطولة المتزنة التى يريدها أفلاطون لحكام مدينته .ولقد أفصح أفلاطون فى الجمهورية عن إعجابه بأنواع من الفن الذى رأى فيه تعبيرا عن الأهداف الدينية والمثالية والاخلاقية كان فى التصوير والنحت أميل إلى الإعجاب بالطراز الهندسى المرتبط بقواعد رياضية ثابتة . وفضل فى الموسيقى ما عبر عن ائتلاف النفس واتزانها ، لذلك سمح بدخول الموسيقى الدورية والفريجية . وهى الموسيقى الباعثة لحماسة الجند أو الهدوء والاتزان فى النفس .

ولنقرأ فى محاورة الجمهورية المشهد الآتى :

سقراط : يكفى ما قيل عن المضمون ولنبحث فى الأسلوب كى نكون قد تناولنا بطريقة سليمة المضمون والشكل على السواء، أى ما يقوله الشعراء وكيف يقولونه .

– لست أفهم ما تعنيه .

سقراط : لابد من الفهم . وقد تفهم أكثر بالطريقة الآتية . أليس كل ما يقوله قصاصو الأساطير والشعراء روايات ماضية أو حاضرة أو مستقبلة؟

– لايمكن أن يكون غير ذلك .

سقراط : ألا يكون أسلوب الرواية إما بسيطًا أو محاكيًا (تمثيليًا) أو كليهما ؟

– أرجو أن تفسر ذلك أكثر .

سقراط : يبدو أنى معلم غامض لا أعرف كيف أوضح قصدى، وسوف أعمد إلى ما يعمد إليه من لا يعرفون كيف يوضحون مقاصدهم، فبدلاً من أن أتناول الموضوع بوجه عام أتناول جزءًا منه وأحاول توضيح ما أريد قوله ولتجيبنى بما تعلمه عن ظهير قلب من الإنيادة؛ إذ يروى الشاعر أن الكاهن خريسيس رجا أجاممنون أن يرد له ابنته فلما ثار الأخير على هذا الطلب دعا الكاهن الآلهة واستعداها على الإغريق .

– نعم أعرف .

سقراط : أو تعلم أيضًا هذه الأبيات التى يقول فيها الشاعر ودعا الكاهن على جميع الإغريق وخاصة على ابنى " أتريد "

حاكمي الشعب . والشاعر إذ يروى ذلك إنما يتحدث بأسلوبه الخاص ،ولا يوهمنا بأن أحداً غيره يتكلم ، أما فيما يرد بعد ذلك فعلى العكس يحاول هوميروس أن يخفى عنا أنه هو المتحدث، وإنما يتحدث كما لو كان هو شخصية خريسيس كاهن أبوللو وعلى هذا النحو يروى الأحداث التي جرت في إليون وإيثاكا والأوديسا .

– هذا صحيح .

سقراط : وعندما ينطق الشاعر بكلام على لسان أحد شخصياته ألا نقول إنه يحاكي بقدر الإمكان لغته ؟

– أجل هو كذلك .

سقراط : أليست محاكاة شخصية الغير سواء باللغة أو بالحركة هي التمثيل؟

– نعم بلاشك .

سقراط : وكذلك يبدو أن هوميروس وباقي الشعراء قد استعانوا بالمحاكاة في رواية قصصهم .

– نعم بكل تاكيد .

سقراط : لكن على العكس إذا لم يختف الشاعر وراء شخصيات روايته فلن يوجد في شعره محاكاة، ولكي لا نقول

إنك لا تفهم فسوف أشرح لك أكثر فأقول إن هوميروس حين يروى ما قاله خريسيس للملوك بأسلوبه لا بأسلوب خريسيس فلن يوجد هنا محاكاة بل رواية بسيطة فيصبح شكل الحديث على النحو التالى وبالنثر لأنى لست بشاعر : "وبعد أن جاء الكاهن ودعا الآلهة بأن تنعم عليهم باحتلال طروادة وأن تحفظهم وطلب من الإغريق أن يردوا له ابنته نظير فدية، وبعد أن انتهى من الكلام أظهر له الإغريق موافقتهم إلا أجاممنون الذى غضب وأمره بالانصراف وإلا فإن صولجانه وطلاسمه لن تجديه شيئًا ، وأضاف أن ابنة الكاهن لن تسلم إلا بعد أن تكون قد هرمت، فخاف الكاهن العجوز وانصرف ولكنه وجه دعاءه لأبوللو، ورجاه باسم المعابد والقرابين التى كرسها له بأن يوجه طعناته للإغريق وأن ينتقم لدموعه " كذلك يكون الاسلوب البسيط، أسلوب الرواية . .

- فهمت الآن .

سقراط : وافهم ايضا أن هناك رواية أخرى تقابل هذه وهى تستخدم في الحوار .

- إنها الشكل الخاص بالتراجيديا .

سقراط : حقًا هو ذلك تماما ، وإنى لاعتقد أنك قد أصبحت ترى ما لم أستطع أن أوضحه لك الآن .وهو أن الشعر والأساطير منها أنواع تنطوى على المحاكاة ، أى الكوميديا والتراجيديا كما

قلت على التو ، ومنها أنواع تتلخص في الرواية وهي المستعملة في الديثورامب ، وهناك نوع يجمع الأسلوبين وهو الذى استخدم فى الملحمة .

– لقد فهمت ما تعنيه .

سقراط : لتذكر أننا قد أوضحنا ما يجب أن يقال وبقى علينا أن نوضح كيف يقال .

– نعم ذكرت ذلك .

سقراط : كنت أقول ينبغي أن نقرر هل سنسمح للشعراء أن يستعملوا المحاكاة أم نمنعهم من المحاكاة ؟

– أظنك تقصد هل سنسمح فى مدينتنا بدخول التراجيديا أم نمنعها؟

يرى أفلاطون أنه لايليق بحكام المدينة الفاضلة أن يمارسوا المحاكاة؛ لأنها ستعودهم التقلب والتغيير بحسب الظروف والاحوال، وهذا ما لا ينبغي للحكام الذين يجدر بهم التمسك بالفضائل ،ويختتم حديثه عن المحاكاة بعبارته المشهورة :

ويبدو لي أنه إذا حضر مدينتنا رجل ماهر فى اتخاذ كل الأساليب ليعرض على الجمهور أشعاره فسوف نكرمه تكريم كائن مقدس ، ولكننا نخبره أن لامكان لمثله فى مدينتنا ونصرفه إلى

مدينة أخرى بعد أن نعطره بالمسك ونتوجه بالغار . أما نحن فلا يناسبنا إلا شاعر وقصصى أكثر جدية وأقل سحراً يناسب خطتنا ولا يحاكى إلا أسلوب الأمناء من الناس، ولايتخذ إلا اللغة التى وصفناها منذ البداية عندما حددنا منهج تربية الحراس .

ويعود أفلاطون للحديث عن الشعر فى بداية الباب العاشر من الجمهورية فيقول :

لن نقبل بأى حال من الاحوال ذلك النوع من الشعر الذى يتلخص فى المحاكاة وتتضح ضرورة رفض هذا الشعر خاصة بعد ما سبق أن ذكرناه عن قوى النفس المختلفة" .

– وكيف يكون ذلك ؟

سقراط : سأشرحه لك ما دمت لن تشكونى لشعراء التراجيديا وباقى المؤلفين الذين يمارسون المحاكاة، إذ يبدو لى أن كل هذه الأعمال تفسد نفوس من يستمعون لها ما لم تكن نفوسهم محصنة بمعرفة تمنع تأثيرها الفاسد .

– لكن لم نتحدث على هذا النحو؟

– هذا صحيح .

سقراط : ومن الواضح أن الشاعر – التمثيلى – المحاكى لا يسترشد بالمبدأ العاقل فى النفس ولايرضيه بما له من مواهب فنية

مادام يرغب في كسب رضا الجمهور، ولكنه يسعى إلى محاكاة الخلق المنفعل المتقلب .

– هذا أمر واضح .

سقراط : وعلى ذلك يحق لنا أن نهاجمه على التو وأن نضعه في مصاف المصور؛ إذ إنه يشابهه حين يعكف على أعمال تنقصها قيمة الحق، وهو يشابهه أيضا من حيث إنه يتعامل مع هذا الجزء الحقير من النفس الإنسانية ولايتعامل مع الجزء السامي منها . وإذن فإننا نرى هنا سببًا يبرر لنا رفض دخوله مدينتنا التي ينبغي أن تسودها القوانين الصحيحة والمثل السليمة ، إذ إنه يؤثر على هذا الجزء السيئ من النفس ويقويه وبذلك يهدم القوة العاقلة شأن مايحدث في بعض المدن حين يتولى السلطان فيها أشرار يعدمون الحكماء . وبالمثل نقول عن الشاعر المحاكي – التمثيلي – إنه يخلق في نفس كل فرد حكمًا سيئًا بإثارته الجانب اللامتعقل الذي لايميز بين الكبير والصغير والذي يحكم على الأشياء تارة بأنها كبيرة وتارة بأنها صغيرة ويخلق أشباحًا ويظل بعيدًا عن الحقيقة بعدًا شاسعًا .

– أجل هو كذلك بالتأكيد .

أفلاطون أكد طوال المحاورة أن الفضيلة في حد ذاتها خير للإنسان وهو ختام المحاورة، يرى العادل محبوبًا من الجميع الناس والآلهة على السواء، وما يصيبه من شر ليس في الحقيقة إلا امتحانًا

ظاهريًا ولأنه سيكون في النهاية أسعد حالاً من الظالم .

تتضح قيمة العدالة وتزداد إذا كان في الآخرة حساب، وإذا كانت النفس ستظل خالدة بعد الموت لتتلقى جزاءها .

ويؤكد أفلاطون هذا الحساب بما يرويه في نهاية المحاورة من أسطورة تصف العالم الآخر معروفة بأسطورة " إر بن أرمنيوس مواطن بامفيليا " .

يذكر أن " إر " كان قد قتل في معركة وظل عدة أيام في عداد الأموات ثم عاد للحياة مرة أخرى، وأخذ يقص ما شاهده في العالم الآخر من يوم الحساب .

ولقد سرد أفلاطون في سياق هذه الأسطورة وصفًا عجيبًا اختلطت فيه الأسطورة بالفلك والرؤى الدينية بالنظريات الفلسفية، وبأسلوب أدبي رائع غايته إعداد النفوس في هذا العالم للقاء يوم الدينونة ذلك اليوم الرهيب .

ولقد رأى " إر بن أرمنيوس " أن النفوس تأتي يوم القيامة لتلقى حسابها فتحكم الآلهة على الأشرار بعذاب في الجحيم يدوم ألف عام ، أما النفوس الخيرة فترى من النعيم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ويروى أن الطغاة الظالمين والقتلة والملحدين يتلقون أقسى أنواع العذاب، ويخص بالذكر أردبايوس الذى كان طاغية بامفيليا وبلغت قسوته حدًا لامثيل له .

وبعد أن تلقى كل نفس جزاءها تعود لتقضى سبعة أيام فى سهل تحكم فيه إلهة الضرورة والقدر .

وتعلن الآلهة للنفوس أنها ستعود للحياة الدنيا مرة أخرى، وعليها ان تختار نوع الحياة التى ستحياها . فحياة الطغاة التى تظل على قسوتها إلى يوم وفاتها وحياة طغاة تنتهى بالنفى أو بالفقر مثلاً، وحياة أبطال يعيشون لطلب المجد والشرف، أو حياة نساء مختلفة، أو حياة حيوانات وهكذا تختار كل نفس نوع الحياة التى تحياها بعد رجوعها إلى الأرض مرة أخرى.

ويعد أفلاطون لحظة اختيار النفس لمصيرها لحظة حاسمة فى حياتها؛ إذ يتحدد هذا الاختيار بمقدار ما حصلته النفس فيما سبق من علم ومعرفة، فنجد النفس تختار بحكم خبرتها السابقة فقد اختارت نفس أورفيوس .

مثلاً حياة بجعة حتى لايولد مرة أخرى من امرأة كراهية منه للنساء ، واختار إيبوس نفس امرأة عادية بل غيرت بعض نفوس الحيوان حياتها واختارت حياة إنسانية .

وبعد أن تم للنفوس اختيار حياتها المقبلة على الأرض بعثت الإلهة "لاخيسيس" لكل منها روحًا حارسا يوجهها فى الحياة التى اختارتها .

وبعد ذلك روى "إر بن أرمنيوس" أن النفوس ذهبت بعد ذلك إلى سهل أنيشى الذى ساده جو حار خانق، وهناك شربت كل

النفوس من نهر أميليس فأصابها النسيان التام واستغرقت في نوم عميق إلى أن زلزلت الأرض زلزالها وقذف بالنفوس في كل اتجاه إلى العالم العلوي الذي تستيقظ منه بعد ذلك في ولادة أخرى على هذه الأرض . أما " إر بن بامفيليوس " فقد منع من شرب مياه النسيان ووجد نفسه قد عاد مرة أخرى لجسمه وحياته أما كيف عاد فهذا ما لم يعرفه .

يختتم سقراط حديث العدالة في جمهورية أفلاطون بتلك العبارة الخالدة :

" لكن صدقتموني فعلمتم أن النفس خالدة وحرة في اختيارها الخير والشر فستهدون إلى سواء السبيل وستلتزمون دائمًا بالعدالة والحكمة في أفعالكم لكي تمتلئ نفوسكم طمأنينة وأمنًا .

ثانيًا : ماذا يبقى من الجمهور ؟

هل يمكن تحقيق المدينة الفاضلة حقًا ؟

شيء واضح تمامًا أن نعلم أن المدينة العادلة لا توجد ، ولم توجد أبدًا في هذا العالم . فبهذا المعنى إذن هي يتوبيا من حيث إنها لا توجد كمثال إلا في المكان الذي لامكان له المكان المعقول حيث " توجد " المثل . هل هي مستحيلة ؟ بالتأكيد ، مادامت المثل لايمكن إطلاقًا أن تتحقق في العالم كما هي تمامًا ، فليس في العالم " الواقعي " دوائر ولامثلثات وخطوات مستقيمة ونحن لا نقابل فيه إلا صورها وما يشارك فيها ويقاربها .

إن وجودها ، أو تحققها ، ولو أنه عسير تمامًا ، وبالتالي غير محتمل بالمرة ، إلا أنه يجب أن يعد ممكنًا نظريًا . ولا ريب في أن المدينة الكاملة سيمكن تحقيقها، وذلك " عندما نرى على رأس الدولة فيلسوفًا أو عدة فلاسفة ، بازدرائهم المناصب التي نسعى إليها هذه الأيام وبعدها غير جديرة بإنسان حر وغير ذات قيمة سيعلمون بالعكس على تقدير الواجب والأمجاد التي ستكون لهم خير جزاء، وهم إذ يعدون العدالة أهم الأشياء والزمها سيكرسون أنفسهم لخدمتهم ، ويعملون على ازدهارها ، وينظمون المدينة بحسب قوانينها " .

ومما لاشك فيه أن الاحتمال ضئيل جدًا في أن يصبح الفلاسفة رؤساء دولة – وكيف في الحقيقة سيصبحون كذلك ؟ – ومع ذلك فعلى مر الأزمان كل إمكان يمكن ، من حيث المبدأ أن يتحقق . فليس " مستحيلا " أن يولد فيلسوف من نسل ملكي ... وليس "مستحيلاً " أن يوجد في الوقت نفسه فلاسفة آخرون يمكنهم أن يكونوا له وزراء ومستشارين . والحقيقة أننا عندما نقف على برنامج العمل الذي يجب عليهم وضعه إذا أرادوا إقامة المدينة الكاملة ، فإننا نبدأ نشك في القيمة العملية للاحتمال النظري الذي قررناه الآن . فالواقع أن الحكام الفلاسفة للمدينة غير الفلسفية ، كإجراء أولي ، " سيبعدون إلى الحقول كل من جاوزوا العاشرة من عمرهم في هذه الدولة . ثم هم سيأخذون أبناءهم

ليحافظوا على خصالهم الراهنة التي هي خصال آبائهم ، وينشئونهم وفق خصالهم الشخصية ومبادئهم الخاصة . .

وستكون هذه هي أسرع وأيسر وسيلة لإقامة الدستور الذي رسمناه في دولة سعيدة تفيض بالخيرات على شعبها الذي تعرفه منذ ولادته " .

ليس أسهل من ذلك بلا شك . . بشرط ألا يتهكم سقراط برقة من أصدقائه الشباب . .

كما أنه لايهم كثيراً إذا كانت مدينتنا هذه يمكن أو لا يمكن تحقيقها في الواقع . فنحن نعلم أنها مثال ، وحسبنا هذا هادياً لأعمالنا ومرشداً لنا في فهمنا وتقديرنا لفن أفلاطون .

الفهـــــــــــرس

القصـــــــة	الصفحة
- اليوتوبيا أو المدينة الفاضلة	٤
- الفـــردوس المفـــقـــود	١٨
- الكومـــيـــديا الإلهـــيـــة	٣٧
- جـــمـــهـــورية أفـــلاطون	٥٦
- الـفـــــهـــــرس	٩٦